إدريس علي

المبعدون



قصص قصيرة



المبعدون

قصص

إدريس على

لوحة الغلاف للفنان :حسان على

الطبعة العربية الثانية : ١٩٩٩

رقم الإيداع ١٠٢٥٣/ ٩٩

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-291-156-6



السلسلة الأدبية

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : شريف على

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

إدريس علي

المبعدون

قصص



إهداء

إلى ..

الإذاعية الكبيرة

الأستاذة / نجوى أبو النجا

تقديراً وشكراً

إدريس على

المبعَدون

(١)

تيه وسراب ، لا مرشد ولا طريق ، نحن والمجهول ، غالبًا ما نضل ونيأس ثم نسترشد بنجمة أو بصيص ضوء بعيد .. صحراء شاسعة بلا ماء ولا ظل ، أعشابها بلا ثمر ، ليلها موحش ، نهارها جحيم ، والأقدام التى سبقتنا شقت طرقًا محتها الزوابع .. وأجسادنا جفت من الحرارة ، فالشمس ترسل أشعتها ولا يعنيها أن تحيى أو تميت .. ياللحكمة .. نفط هنا بغزارة ولا نهر ، ولدينا نهر يصب فائضة فى البحر .. ونفط شحيح . ونحن أيضًا فائض عمالة ، عشرات من الرجال كنا نتجه غربًا سعيًا وراء رزق وفير ، بيننا الحرفى ، وعامل التراحيل ، والمثقف المتسول ، واللص ، ونساء من الغجر الرحل الذين ينتقلون بين الدلتا والصعيد والقنطرة شرق . نزوح شبه جماعى فى السنوات التى أعقبت نكسة يونيو . وطبرق محطة وصول ، وبلوغه صعب .. التعب والشرطة والشمس . وفى الطريق تعارفنا نحن أبناء الحظ العاثر وجيل المعاناة ، أحيانًا يتعقبنا الجنود بسياراتهم السريعة .. فنجرى .. نتفرق نختبئ ، لكنهم يكرون عائدين بعد أن يلتقطوا القربان ، غجرية أو غلامًا حديث السن . والشمس ترفض القرابين ، عروس النيل فى الماضى وضحايا النفط الآن . رحلة المستحيل .. من مدن الصعيد بدأها عمال التراحيل تسطيحًا فوق القطارات ثم سيرًا من مطروح للسلوم فطبرق الاستراحة ... ولأبعد إن أمكن .. بنغازى فطرابلس . وكمائن الشرطة تعيد سئ الحظ من حيث جاء . من يضل يهلك ، والأقوياء يواصلون ، والأذكياء يدخلون المدن ويعملون .

ونداءات من هنا وهناك (خُد يا وله ، الحق يا وله) وتجمعنا بجوار جثة

طازجة لأحد أبناءالوطن العائدين . . باغتوه نائمًا وهشموا رأسه بصخرة ، الموت تعبًا أو قتلاً مثل الحشرات بعيداً عن الوطن . تركناه دون أن نلمسه وتفرقنا . سألنى صابر عن القاتل . . . من يكون ؟ رجحت أنه لص ، أو رفيق طريق اختلفا معًا فى قسمة مال مشترك ، أو طالب ثار تتبعه وتصيده هنا ، أو . . . قاطعنى صابر . . لأننى مسطح التفكير مثل سالم ابوعوضين ، لأن القاتل الحقيقى هو النفط . النفط القاتل . . عنوان فيلم ، أيكون قد اشتد به الظمأ فارتوى من بئر نفط ؟ صابر هذا غريب الأفكار ، لغز بأناقته وثقافته ونظارته المذهبة الإطار ، سألته عن هدفه من هذا السفر المضنى فلم يرد . تعرفت به فى قطار الأحد المتجه للسلوم ، ونحن نختبئ قرب السلك الشائك لنعبره ليلاً ، سمعنا أنينًا وبكاءًا تتبعنا مصدره فعثرنا على سالم أبو عوضين – ثالثنا – يتمرغ داخل حفرة ويلطم خديه كندابة . يا راجل عيب ، استغفر ، الدنيا وحالها ، الدوام للّه ، بعد مجهود نجحنا فى فرملة دموعه بمسكنات الأمثال ، وأخبرنا أنه لم يفقد عزيزاً . . فعلام أقام هذه المناحة ؟ حين اطمأن لنا . . روى مأساته باكيًا : بالأمس كان معه ألف دينار وحقيبة مليئة بالهدايا . . حصاد عامين فى الغربة والشقاء . . وما أن عبر السلك ، ودخل حدودنا حتى وقع فى كمين حرس حدود بسبب الظلام . . أوسعوه ضربًا وصادروا كل ما يملك من مال وهدايا وتركوه إشفاقًا بدلاً من السجن والبهدلة . المسكين كان يحلم بقيراطين أرض وجاموسة . . لا شئ الآن . . كله ضاع ، حزنت وواسيته ، وانفعل صابر وطالبه بأن يشكوهم لأنه تعرض للسلب وليس للمصادرة . .

– معقول اشتكى الحكومة يا بيه . . ؟

بمثابرة ، بأناة . . حاول صابر أن يقنعه ويحرك البركة الساكنة فى عقله بلا فائدة :

- (قسمتى كده وأنا أصلى وش نحس)

توتر الموقف وكادا أن يتماسكا وسبه صابر :

- غور فى داهية .. رجعتونا ألفين سنة لورا .

لم يغر وتشبث بنا مستجديًا مرافقتنا لكى يجرب حظه مرة ثانية . فقبلناه على مضض لأنه أصبح عبئًا على زادنا القليل . بعد عبورنا الحدود .. نظر صابر للشرق متنهداً كعاشق يفارق حبيبته مضطراً .

بعد نحو أسبوعين من السيّر المتقطع وقفنا جوعى متعبين عند مشارف طبرق ننتظر حلول الظلام لندخل المدينة متسللين . وسمعنا من ينادى ويطلب منا التجمع .. (تعال يا مصرى) جائع أو عطشان بدأ بالتقدم .. ومن خلفه خرجنا من المكامن واحداً خلف الآخر ، وبتردد وخوف كنا نجالس بدويًا .. قدم لنا الماء المثلج والطعام والتفاح والدخان . فجاء المزيد من الجياع ظل ينكت باللهجة المصرية وعرفنا بنفسه : الطويبى ميلود الشبيانى .. أشهر واحد فى الصحراء بعد عمر المختار الذى دوّخ الطليان ، وأنا دوخت دولتين .. هربت الماشية من عندكم والدخان من عندنا وتبت الآن مكتفيًا بعمل الخير ، وحدثنا عن حبه لمصر .. حى الدقى .. النهر .. الملاية اللف فى الموسكى وبولاق .. والاستيلا المثلجة ، والأهم .. فزوجته فلاحة مصرية من الشرقية . وبذكاء أخذ يفرزنا :

- هذا نجار .. أنت حداد .. والآخر مبيض .

وأشار لى قائلاً :

لا أرتاح لأمثالك .. فأنت لا هذا ولا ذاك .. وتبدو كالشعراء أخدمك لله وأضمك لأسطى يعلمك شيئًا ينفعك فى المستقبل .

ثم ألقى قنبلة مربتًا على كتف صابر :

وأنت أستاذ ممن يثيرون المتاعب .. فلا نفع منك ، تعدنى بالتعقل

فناخذك مجاملة لإخوانك .. أو أسلمك للشرطة .

طول الطريق وهو يوصينا بالأخلاق وأنتم لنا ونحن لكم . كنا ننشد المأوى والأمان .. فلم نسأله عن وجهتنا أو نساومه على أجر وانتهى بنا فى حوش كدسنا فيه مع آخرين أتى بهم قبلنا ، ثم جاء برجل عرفنا به ، الحاج محمد الغريانى أشهر مقاول فى البلاد وهو من سنعمل معه .. فدخل بيننا فاحصًا سائلاً ، محاولاً إبعاد المرضى والمسنين والأفندية فاعترض الطويبى .. لأن الاتفاق تم بالجملة ، أفلتت منه الكلمة .. فادركنا أنه مجرد سمسار استبدل الماشية بالبشر ، فربح من ورائنا بغير سفر ولا مكابدة . وهل كنا فى وضع اختيار . سألنا المقاول متقربًا :

– شن تبوا[1] تخدموا ؟

– كل حاجة ..

– باهى .. وقديش تأخذوا ؟

– اللى تشوفه ..

– باهى .. وتوا سمولى بلادكم وتحلفوا على القرآن .

تعارفنا وتصارحنا وحلفنا . هو أيضًا يحب الأزهر والحسين وأم هاشم . رجل ذكى ينتقى الردود ولا يُغضب أحداً ، يسألك عن موطنك .. إن كنت من بحرى قال : كرماء ، من قبلى قال : رجال ، فى اليوم التالى وزعنا للعمل قبل أن نرتاح من عناء السفر ، استوقف صابر وسأله متعجبًا :

– وانت شنى[2] يا شاب .. ضابط استخبارات ؟

فزع صابر وضحك هو .. ثم عينه كاتبًا للأجور ومراقبًا للوقت . لبثنا معه عامين وشهوراً .. نشيّد البيوت والمدارس وننتقل بين المدن من بنغازى

---

(١) شنو تبو : ماذا تريدون .

(٢) شنى : ماذا .

شرقًا إلى سبها جنوبًا . كلنا نعمل ونحلم ببيت أو عروس أو قطعة أرض . وأبدًا ، أبدًا .. لم يدر فى خلدنا بأننا سنتعرض لعملية خداع بشعة .. فذات ليلة ، ونحن فى سبات عميق بعد عمل يوم شاق ، داهمنا الجنود وجمعونا للترحيل بالقوة :

– انهض يا مصرى .

– أوراقك .

– اركب يا فوال .

– ملعون والديك .

– فسدتم علينا البلاد .

– سكّر * فمك .

نثور ، نحتج ، نرجوه وصابر يتقدم طالبًا المسئول ، فيتساءل حكمدار القوة بازدراء :

– خيره الفوال هادا ؟

فنبسط له الأمر : بأننا ، نحن ، المال المدخر ، الأمانة ، الأخوة .. وإننا عملنا وكدحنا ومدخراتنا كلها فى حوزة الحاج وإننا لن نرحل طبعًا بدون الفلوس ..

– فلوس شنى .. جبتوه معاكم من بلادكم ؟

جئنا مفلسين .. هذا صحيح ، لكننا .. شيدنا .. تعبنا .. عرقنا . وافترضنا إن اللغة الواحدة والجوار هما جواز سفر ، بالتأكيد الغريانى لا يدرى وسيهرع لنجدتنا بمجرد وصول الخبر إليه . فنلتمس من المأمور .. أن يبعث بمن يخبره فيرفض قائلاً :

– وين ندرى عليه ؟

(*) سكر فمك = اغلق فمك .

كيف وهو من من المشهورين ، لا نصدق أنهما متواطئان الحاج الذى حلف معنا وكان يزعم أن ما يعيب المصرى رغم طيبته هو تركه للصلاة . فمن ثقتنا بورعه ، لم نناقشه فى الاتفاق الذى أبرمه معنا ، يدفع بموجبه ربع الأجر يوميًا . . والباقى يظل مدخرًا معه لحين انتهاء عملنا معه يسلمه لنا نقداً فى السلوم بعد أن يوصلنا بسيارته لكى يجنبنا متاعب الطريق . فمن رأيه أن سيولة المال فى الأيدى تشجع على لعب الميسر والسرقات وشراء ما ليس له لزوم . ومما طمأننا . . القسم الذى تم بيننا على كتاب الله، ودفاتر الحسابات التى بحوزة صابر ، وعشرات التصرفات الذكية التى تسلل بها إلى قلوبنا وخدرنا بها . واتضح فيما بعد ، أن ما يعيبنا ليس هو ترك الصلاة ، إنما حسن الظن بالغير لدرجة العبط . والشائعات تدور بيننا ، بأن هذه عادة المقاولين مع الذين يأتون (سلكاوية) مثلنا . . ولسنا أول الضحايا ولا آخرهم ، وأن ثمة اتفاقًا فى هذه الحالات بين المأمور والمقاول ، ومما يعزز ظنوننا أن سالم أبو عوضين . . كان قد قرر الرحيل منذ شهر تقريبًا فظل الغريانى يراوغه ويتهرب منه . . بجملة واحدة ، باهي يا سيدى . . غدوة * الحي وقتنى .

وغداً هذا لم يأت قط حتى وقعت الكارثة ، فأصبح سالم ضحية الظروف للمرة الثانية ، وحين ركبنا الناقلات ، القوا بسالم وسطنا عنوة . . والناقلة تسرع بنا ، تنهب الطريق حاملة فى جوفها العديد من الرجال المحطمين الذين يجلسون فى ذهول ، وبيننا ثلاث غجريات ممن يمارسن التسول والشعوذة والدعارة ، ومعنا كذلك سيدة قاهرية جميلة . . قصت لنا مأساتها باكية خلال الطريق .

(*) غدوة : غداً .

(٢)

رغم انغلاق المبعدين على ذاتهم وتفكيرهم المتواصل بما كان وسيكون ، فالسيدة تجهل ما بنا وتروى بلوتها لتعمق الجرح فى قلوبنا . فنشعر بفداحة ما نزل بها .. وبنا ، فإن صمتت أطلقت العنان لدموعها .. وابكتنا معها ، وإن تكلمت .. لعنت أهلها الذين باعوها بجهاز تسجيل وكمية من الملابس النايلون وجنيهات لم تزد على المائة .

وسلموها لغريب يجهلون عنه كل شئ .. بهرهم بسيارته الفاخرة التى فرحوا بركوبها كالأطفال ، فلا تدرى أى نوع من الزواج تم بينهما ، أدخلها بلاده خلسة واكتشفت هناك أنه بلا عمل ولا تجارة .. وأنها ليست أولى زوجاته المصريات ، وحين شبع منها ، حاول تقديمها لذوى النفوذ فى السهرات الخاصة ، ولما أبت متمسكة بشرفها ، أخذ يقسو عليها فلجأت للشرطة طلبًا للحماية ، فتنكر لها ولم يكن معها ما يثبت حجتها .. فأبعدوها . تعجبنا لغباء الأهل ، ولعنا الفقر الذى شردها .. وشردنا . ونظرت إليها قلة بعدم تصديق ، وصابر أصغى إليها باهتمام ، وشملها بحمايته .. وذلك حين ساءت نية البعض نحوها .. بالقول الخشن والحركة الغامزة .. فهى فاتنة ومكانها أميرة فى قصر وليس هنا بالطبع . ومن البداية والسائق والحارسان يدورون حولها ، عطلوا الناقلة لتصبح فى نهاية القول ، ثم توقفوا بأعذار مختلفة .. مرة زيت ومرة ماء أو بنزين ، وفى إحدى الوقفات .. جاءنا الحارس متبسطًا :

ـ الإخوان بخير ..

شكرناه بامتنان رغم الجرح الذى لن تداويه آلاف التحيات ..

ـ والست هانم مستريحة ؟

تغامزت الغجريات واستقرت النظرات المعجبة على وجه السيدة الأبيض الصبيح وعيونها المصرية الجميلة ، فتجرأ السائق وقفز جالسًا على حافة مؤخرة الناقلة مقتربًا من الركاب . ومستفسرًا عن أحوالهم ، وخصها بسؤال متلعثمًا :

ماتبيش* أى خدمة ؟

موقف مربك وسؤال محشور يزيده إرباكًا . فنفخت الغجريات غيظًا وحسدًا . وتلفت الرجال فى حيرة وسألنى صابر بعصبية عن معنى وقوفهم المتكرر .. فمن أدرانى ؟ لست مكلفًا بمتابعة تحركاتهم .. وتفسير نواياهم.

امور أخرى تشغل فكرى وتقلقنى ، الأهل والعروس المنتظرة وفى سالم أبو عوضين والطويبى الوغد سمسار البشر الذى باعنا لمن هو أخس منه ، الغريانى الحقير الذى أثرى من ورائنا مستغلاً ضعف موقفنا . وافكّر فى الذين ضلوا وهلكوا أو صرعهم حراس الحدود من الدولتين .. جثث مجهولة طوتها رمال الصحراء.. لا سبلت جفون أصحابها ولا بكاهم مخلوق ، إن يقفوا أو يسيروا سنصل حتمًا لمكان آخر فوق سطح كرتنا الأرضية المنكودة المليئة بالمخادعين واللصوص والكلاب وفى وطننا أيضًا مقاولو أنفار من موردى البشر الذين يأكلون عرق الكادحين ويثرون . هنا أوهناك . فنحن تحت رحمة من يملك . وصابر هذا الثائر .. سيموت حتمًا فى نوبة غضب أو يشنق ، لكن لماذا وقفوا حقًا ؟ نحن الآن عند نقطة مجهولة فى الصحراء بين طرابلس وبنغازى ، بعد مغيب الشمس ، والظلام زاحف نحونا ولا زبالة ضوء تبشر بالأمل . حتى تورمت أقدامنا وكدنا نهلك . وكنا نحلم بغد أفضل .. فذهبنا ضحية لجشع الآخرين ، فهل ثمة

(*) ماتبيش : أتريدين .

مخلوق أحط من هذا الغرياني ؟ وهذه الغادة القاهرية .. كيف هانت على أهلها فباعوها بجهاز

تسجيل . فهل بدأنا في تجارة الرقيق الأبيض باسم الشرع ؟

– أهلاً وسهلاً يا عرب ..

السائق ورفيقاه يرحبون بنا .. أمرونا بالنزول للاستراحة والتهوية فأطعنا مترددين . حطبوا وأشعلوا ناراً وضعوا على جمرة براداً للشاى وجلسوا يستدفئون ويتسامرون . ظلام مشجع لارتكاب أبشع الجرائم . فهل نحن مقبلون على أمر جلل ؟ هب أنهم ولسبب يخفى علينا .. أطلقوا النار وأبادونا فهل تقوم الدنيا من أجلنا وتقعد ؟ لا شئ بالمرة .. فمن يدرى بوجودنا هنا . وفى بعض المحافظات .. يعيش المتسللون شبه أسرى في المزارع والمشاريع ، من يحتج أو يطالب بحق ، تلفق ضده تهمة السرقة أو سب الزعيم أو مغازلة النساء وفى أقل الأحوال ضرراً يسلم للشرطة لكى يرحل بلا حقوق . طافت برأسى فكرة شريرة .. أن أهرب وأعود للغرياني لأغرز أسناني في عروق رقبته وأظل أشرب من دمائه وأشرب حتى أرتوى وأستريح .. نقلت أفكارى لصابر الذى كان مشغولاً بالسيدة ورفض أن يتركها بمفردها لأى سبب .

ألحوا علينا لمشاركتهم .. فجلسنا في شبه دائرة نحتسى الشاى على الطريقة البدوية .. بينما اعتصم سالم بالناقلة .. ولابد أن أفكاراً مدمرة كانت تراوده مثلى . والسيدة جلست فوق جركن ماء فتسابقوا على خدمتها والفوز برضائها . أنثى حقيقية .. من يملكها فاز بالدنيا ، وأعجب .. كيف باعوها بثمن بخس ؟ ولو عدنا بها لعصر الجوارى .. لدفع الأمراء والملوك .. ثقلها ذهباً . وتبريراً للبقاء حيث نحن لا طول مدة ممكنة .. توسعوا في تكريمنا بالطعام والدخان .. ثم بزجاجتي ويسكى ،

قبلها البعض طلبًا للنسيان والدفء ، أو لمجرد التجربة . السائق ابتلع عدة كؤوس بسرعة وقال للسيدة مترنحًا :

– عليّ الطلاق أنتي تساوى حقل بترول ..

ابتسمنا نحن وضحكت هي لأول مرة فكبر السائق وهلل وسكب في جوفه مزيداً من الشراب وألقى الرجال بهمومهم ونسوا ما كان .. واعتبروا ما لا قوه شذوذاً ، والقاعدة ما نحن فيه الآن من وئام . أبلغونا أمانة توصيل تحياتهم الحارة لسكان الوادى وأبطال السويس :

– (وبالله تزوجونى بنت عمكم هادى وأنا نريد زوجه مصرية من الريف، وأنا عندى صديق فى الدقى تسلموا عليه ..) .

ذابت الفواصل وأزيلت الأسلاك والغيت جوازات السفر وتوحدت اللهجات . مرت بنا إحدى ناقلات الترحيل العائدة من الشرق فاستقبلوها على بعد وأتونا منهم بانباء مزعجة ، فجميع الذين رحلوا قبلنا تعرضوا لتفتيش دقيق فى جمرك مساعد وبوابة الحدود المصرية .. ومن يحالفه الحظ هنا يسوء معه هناك – قلق وخوف . وتنشط فى تخبئة ما تبقى معنا بشتى الطرق . وتسللت الغجريات خلف تبة بحجة قضاء الحاجة فاستقبل السائق أولى العائدات منهن بتعليق ساخر خبيث :

– دسيتى القروش وين يا حرمه ؟

ارتسمت بسمة فاترة على شفاه المجاملين وظل صابر فى عبوسه وتحفزه ولم يذق طعامهم ولا شرابهم ..

– نذير فيكم معروف ؟

– لابد نساعدوكم ..

– كلنا أخوة عرب .

هم الذين أبلغونا بالخطر المحدق ثم ألقوا علينا باطواق النجاة .. فنتدافع

بلا ترو نحو هذا الأمل .. وبالذات الغجريات . والذين لم يخدعوا وهم قلة . أما نحن .. ضحايا الغرياني .. فما ادخرناه من ربع الأجر .. كان كافيًا لتوصيلنا إلى بيوتنا فى أمان . ورسموا خطتهم على أساس أن نمر أولاً من جمرك مساعد بدون تفتيش ثم لن يسلمونا بعد ذلك لبوابة الحدود المصرية كما هو متبع ، إنما سيتجهون بنا بعيداً عن البوابة ونقط الحراسة .. ناحية سيدى عمر . وسيفعلون ذلك لأننا أولاد حلال وغلابة ونستحق المعاونة . وابتهاجًا بهذه البادرة الطيبة منهم ، رقصت غجرية واسكندرانى وغنى صعيدى ونكت قاهرى . ضحكنا وسعدنا لدقائق .. اختلسناها عنوة من أيامنا المثقلة بتركه أجيال انقرضت ، ومعاناة واقع ثقيل ، وهموم أجيال مازالت فى حكم الغيب ، وصابر هو الوحيد الذى لا ضحك أو شارك بالتصفيق .. ففيم يفكر يا ترى ؟ فهنا هنا أمر مبهم بالفعل رغم الطرب والرقص والقشرة التى توحى بالإخاء .. وجاءت المقدمة بطلب مغلف بالشفقة من السائق للسيدة : أن تتفضل معهم فى الكابينة لكى تتجنب المطبات فى المسافة الباقية . أقول الصدق .. لم يدر فى خلد الكثيرين أمر خبيث لأن من الطبيعى ركوب السيدات بجوار السائق فى الناقلات والشرارة أشعلتها غجرية .. غاظها أن تفوز امرأة واحدة بهذه الحفاوة :

– واشمعنى هى .. ؟ ما احنا برضه حريم ..

قالتها بغنج مكشوف وردحت ، فتكهرب الموقف وتنبه الغافلون .. فتوتر صابر وسعل معلنًا عن وجوده . لم يكن الموقف قد تحرج بعد أو انكشف غموضه ، مزاح ثقيل أو سوء تأويل سببه الشراب . فقد يكونوا حسنى النية ونحن الظانين . فالسيدة صاحبة الشأن ما تزال تنفض ملابسها وتستعيد هندامها .. ولم تبت فى الدعوة بالرفض أو القبول .. والقرار لها . لكن السائق فقد صوابه فتسرع وجذبها بجفوة وتوتر ناحية الكابينة . وكأن هذه الجلسة بما تخللها من طعام وشراب ووعود .. كانت رشوة مدفوعة

سلفًا ليضمنوا بها سكوتنا وحيادنا على جريمة أخلاقية ، سترتكب على مشهد منا . وبموافقتنا .

(٣)

اقسم ولست كاذبًا . . بأنى رأيت عينى السيدة المبتلتين بالدموع حين استدارت موجهة لنا نظرة معاتبة . . ورغم انجلاء الموقف ، وقفنا متسمرين دون أن ندرك هول الموقف الذى يجابهنا فى المكان النائى . فاقترب منها صابر بثبات ورأس لم ينل منه الشراب . . وحثها على أن تظل مكانها ، ووقف حائلاً بينها وبينهم فتساءل السائق ببلاهة :

– شن فى يا شاب ؟

وحاول حارس أن يزيح صابر مهددًا :

– أنت مش مولاها . . حول غادى وما يخصك شئ . .

وقال مبعد من أغبى الناس أو أخبثهم :

– يا ناس وحدوا اللّه ودول ناس طيبين .

الأرض تحتنا تهتز ، وفوقنا سحب سوداء محملة بسيول ورعود ، والظلام حالك ومخيف ملئ بالأشباح التى ترقص رقصة الموت والشر . وقد انحدرنا من سلالة قوم يقدسون الشرف ، وكثيرًا ما قامت الحروب الطاحنة بين قبيلتين دفاعًا عن شرف امرأة لاحقتها الشائعات . . . وما نزال نقتل من تفقد عذريتها قبل الزواج ، فما بالنا نقف مشلولين يمعن السائق فى إذلالنا بهذا السؤال الصريح المباشر:

– وين بدك يا ست . . معنا ولا معهم ؟

والخيار ليس لها ، إنما لنا . . وصحته : هل تودون إتمام الصفقة أو

نسلمكم لمخابرات الحدود وجمرك مساعد ؟ فإذا قبلنا .. فينبغى دفع العمولة فوراً وهم لا يتقاضونها بالمال .. فلديهم فائض لا يدرون أين ينفقونه .. إنما بغيتهم هذه القاهرية الجميلة بمنتهى الصراحة . وهى صامتة وحائرة بعد أن ألقت علينا بالمسئولية ، والغجريات يحاولن إقناعها أو القيام بدورها ، وصابر واضح وجاد ، قديمًا فقد مستقبله الدراسى فى مظاهرة احتجاج ، من شهور مضت عرفت هذا السر ، فهو من زعماء طلبة جامعة الأسكندرية الذين تظاهروا بعد النكسة فجندوه فى الجيش عقابًا .. ففر إلى هنا ولديه استعداد أن يضحى بكل عمره دفاعًا عن موقف يؤمن به . والسائق ورفيقاه يقفون واثقين من النصر والمبعدون وقد لعبت الخمر برؤوسهم يجهلون دقة الموقف فيقولون غير ما ينبغى .. بينهم الصعيدى والقاهرى والاسكندرانى :

– روقى كده يا ست وشوفى مصلحتك فين .

– غرضهم راحتك يا هانم .

– دى الكابينة دفا وأحسن .

– خلصينا بقى ..

سمعنا عشرات المآسى ونحن ما نزال بعد فى مدينة السلوم ، فلم نصدق . شاهدنا عظام من ضلوا الطريق .. فلم نتعظ ونتراجع . نداء المال الساحر ظل يطاردنا حتى الهلاك . وقد عرقنا وتعبنا بلا مقابل . ونوشك فى لحظة يأس أن نتنازل عن شرفنا مقابل وعد هزيل قد لا يكون بوسعهم تنفيذه . والموقف برمته تحول لعمل خسيس لا يخضع لأى قاعدة أخلاقية ، ونوشك على التحول لقوادين وسط الصحراء ، ونحاصر صابر بالتقريع بدلاً من مؤازرته ونقف معه فى خط معاكس :

– مالك أنت ومالها يا أخ .

- هى حرة يا سيدى ..

- مفتح قوى حضرتك .

- عامل فتك يعنى .

- وهى اشتكت لك يا بارد ؟

- ولا كانت من بقية أهلك ..

هؤلاء ليسوا من سلالة الذين يذبحون ويرجمون ، العار والعيب ، الجدعان وبنت الحتة ، الهروات والمطاوى ، الضرب بالروسيات . فهل تبدل كئوس من الشراب كل صفات الإنسان المكتسبة والموروثة . لم أدر من أكون ؟ قواداً أو مجرد شاهد بين الأطراف . رجل واحد يعرف هدفه . تقدم من السيدة وأبعدها عنهم تماماً ووقف أمامهم وجهاً لوجه وبيده مطواة مفتوحة ، حالفاً أن يقطع بها رقبة من يجرؤ على لمسها ..

- اعقل يا صابر ..

جملة مائعة ندمت عليها ، لأن الموقف تطور بسرعة حين شهر الحارس مسدسه بيد مرتعشة فى وجه صابر .. طالباً منا الابتعاد ..

- حولوا عنه .. حولوا ..

ضغطة على التتك وتزهق روح .. السيدة جرت صارخة والتصقت بصابر وقفت أمام اليد التى تشهر المسدس ، فخففت بذلك من درجة غليان الموقف .. وكبرت فى الأنظار وشعرنا بالخجل فأخذت الخمرة تتسرب من المخمورين . وتقدمت بدورى ووقفت بجوارها ، وارتفعت أصوات لائمة ترجو الحارس أن يخزى الشيطان ، وتقدم صعيدى خطوتين دون خشية وقال بغضب منذر :

- خبر إيه أمال يا شيخ العرب ؟

الحارس الثانى أطلق عياراً لإرهاب الذين تشجعوا ، لكن الدوى .. أدى

لرد فعل عكس ، وكأنها مطرقة هوت فوق الرؤوس ... غيبوبة خمر وانتهت، فسرت الحرارة فى الأجساد وجرى الدم ساخنًا فى العروق ، فمن بقى فى رأسه شئ من خمر .. تنبه ومسح عينيه من الغشاوة . الواقف بعيداً يتفرج.. اقترب ، الجالس فى انتظار انجلاء الموقف .. استعد واقفًا ، من كان يشغل يديه بحقيبة استبدلها بجحر . من ظل يستدفئ بالنار ... قبض على حطب مشتعل ، والذى تخيّر ركنًا دافئًا فى الناقلة .. نزل ، أبو اسكندر .. شمر عن ساعديه . سالم أبو عوضين خرج من عزلته ، والسحب انزاحت عن وجه السماء فأطل القمر وألقى بضوئه علينا وعليهم.. فتساءل السائق بغيظ : ؟

- عصابه .. ؟ صار هيكى .. ؟

ثم وهو يتجه لعجلة القيادة :

- باهى يا فوالة .. غادى نوريكم . وظل الحارس يصرخ بجنون مخيف.

- حولوا .. حولوا . لكن أحداً لم يتحول بل تضاموا وكونوا سياجًا منيعًا حول السيدة وصابر ..

(٤)

السائق جُن . يسرع بالناقلة يطير بها ، محاولاً قطع المسافة من طبرق إلى مساعد بسرعة الصوت .. النار فى الكابينة بسببنا ، والنار فى الصندوق الخلفى بسبب الغريانى ، نحن يقتلنا العطش ونود الارتواء من دم الغريانى.. والسائق يتمنى قتلنا جميعًا ليفوز بالمرأة .. والسرعة الجنونية تخرج بالناقلة عن الطريق ونهتف (يا ساتر) فى المنحنيات .. فماذا

يضمرون لنا ؟ والمبعدون لا يبالون .. يغنون .. سالمة يا سلامة . ونحن لا ذهبنا بالسلامة ولا جئنا بها . لكننا نغنى لكى نهرب من الخوف . ليلى والمجنون . دنيا .. ناس ينحصر تفكيرهم فى الجنس ، وآخرون يقطعون مئات الأميال بحثًا عن الطعام .. فهل عشق السيدة فى ساعات ، ولأنه لم يحصل عليها .. فالويل لنا . فما كدنا نصل إلى مساعد حتى هرع إليهم.. شاكيًا ، ولابد أن الشكوى كانت من الخطورة ، بحيث إن قوة كبيرة خرجت لمحاصرتنا واستقبلنا المامور متجهمًا

– باهي واللّه . فى بلادنا وتسبوا فينا ؟

وتساءل ساخرًا :

– ووين أحمد عرابى هادا .

تبادلنا النظرات ، بحثًا عن حامل الاسم العزيز ، فلم يتقدم أحد . فأدركنا أنه يتهكم عندما سأل السائق عن المشاغب حامل المطواة فأنزل صابر بعدد خرافى من اللكمات الطائشة القاتلة ، والصفعات والزغد الموجع بكعوب البنادق . ونحن أوقفونا فى العراء والطقس ممطر بارد .. فنرنو للسماء .. نرجوها الرفق بنا . وبوابتنا على مسيرة دقائق من هنا . فتخفق

قلوبنا بالحنين لأننا نوشك أن نعود للوطن يحمينا .. ومحامون وقضاه ونشم أيضًا عبير وادى النيل بزرعه ، ونهره ، وطميه ، نتخيل تلك الروائح لأننا ما نزال على بعد مئات الأميال من الوادى . وحولنا أسلاك وحراس يتبادلون حديثًا عدائيًا بشأننا :

– أشبح باللّه .. ياكلوا فى خبزتنا ويسبوا فى ملتنا ..

– أصلهم شنى ؟ فراعنة ولد فراعنة .

– توا ياكلوا طريحة مليحة ...

ونسمع أناشيد وطنية من مكبرات الصوت التى تشيد بالثورة المباركة

التى قامت منذ عام وستخلص البشرية من العبودية ، ونسمع أيضًا صرخات صابر .. فلابد أنه يضرب بقسوة . وسيأتى دورنا بعده . وقد عبر بذهنى سؤال سخيف عما إذا كان المبعدون مازالوا يحملون صابر مسئولية متاعبهم الأخيرة بعد أن أفسد عليهم صفقة الصحراء ، لكنه سؤال مرفوض بالطبع ، فماذا كان يحدث لضمائرنا لو تم ذلك الشئ برضائنا .. يا للعار . وما الفرق والسيدة الآن محتجزة بالداخل وليس بوسعنا الدفاع عنها . لنفرض أنهم وإمعانًا فى إذلالنا .. تفحشوا معها أمامنا .. فماذا نحن فاعلون أمام قوة السلاح ؟ لا شيء فلنفكر أولاً فى وسيلة تنجدنا من المطر الذى أمسى سيلاً .. وما نزال فى العراء ، وخلف الجدران .. غجريات يضحكن مع الجنود . وصابر يئن ، وسيدة وحيدة وأناشيد حماسية ..

فيحتج مبعد .. لسعه البرد :

– حرام عليكم .. ما فيش دين ولا رحمة .

فتساءل جندى باستنكار :

– شن قلت ؟

ورد آخر :

– ما عندنانش دين .

وثالث مستفسرًا :

– كيف يعنى ؟

والعقاب جماعى .. ساقونا للداخل بالسب ، وصور الزعيمين تزين الحوائط وحولها شعارات عن الوحدة الحتمية والفورية ، والدمج ، والحرب ، والعروبة ، وعلى الأرض حزام مقطوع وعدة عصى مكسورة وفلقة ، وإفرازات معدة لإنسان كان يقئ دمًا .. وصابر منزو فى ركن مطلخًا بالدم وبأسلوب مسرحى فج ، اعتلى المأمور مقعدًا .. ملقيًا علينا درسًا عظيمًا فى

الوطنية وكيف أننا – فى رأيه – هربنا من بلادنا .. وجئنا هنا نتسول ونقتل ، تاركين العدو على حافة القنال بعد أن تسببنا فى هزيمة العرب . وتوقف لحظة ليرتب فى ذهنه الكلمات التالية ، فران صمت ثقيل ، سمعنا خلاله ضحكات الغجريات مع الجنود فى غرفة مجاورة ،فامتلأت القلوب بغل شديد وعلق مُبعد بأن القنال قريبة جداً من هنا ، وقال آخر لأقرب الجنود إليه :

– ادخل حارب .

فتساءل الجندى بغيظ :

– شن معناها ؟

ولأن المعنى واضح بالنسبة لنا ، سرت بسمة فوق الشفاه اليابسة من القلق ، تحولت فيما بعد لضحكات متقطعة ونحن نرى الجندى وهو ينظر إلينا ببلاهة محاولاً فهم ما حدث فتجمعوا يسألون عن سر هذا المرح المفاجئ الذى أصاب (الفوالة) .. فعرفوا .. وغضبوا .. فوقف المأمور أمامنا ملعبًا وسطه وقائلاً بشماتة وصبيانية :

– هز .. يا وز .

فرد عليه الصعيدى بغضب :

– ما تحاربوا أنتو ووورونا الفروسية ..

وتبارى الجميع فى الرد القاسى الموجع :

– كفاية عليهم الأناشيد .

– احنا نموت .. وهما بيجروا ورا النسوان ؟

– دا حتى عرقنا كلوه .

– ربنا ينشفها عليهم ..

وسالم أبو عوضين لا ينكت .. لا يضحك . الحقد ، عيناه ترسلان ناراً،

شفتاه مطبقتان على غيظ مكتوم ، صدره يعلو ويهبط من الانفعال . لو أطبق الآن على رقبة كائن حي .. ما تركه غير ميت . والسيدة هي الهدف.. بها يحلم هؤلاء الحمقى . وصابر الضحية هنا وهناك . ونحن أعداء المأمور.. وسيفكر في وسيلة مبتكرة لقطع السنتنا التي ردت . وقد أمر جنوده بأن يفتشوا بدقة .. كي لا يخرج فوال من البلاد بدرهم واحد ، والتفتّيش ذاتي واستفزازي ، تحت الإبط ، بين الأفخاذ ، دكة السروال ، نعل الحذاء .. ثم اخلعوا الملابس ، وإلى دورة المياه . والتبرز إجباري . استولوا حتى على العملات الصغيرة . وتوقف الجنود برهة في العبث بأجسادنا على أثر حشرجة صدرت من صابر ، ويا ساتر .. جرى مبعد ، وأنا ، وآخر . دلكنا صدره ، سقيناه ماء ، طلبنا طبيبًا ، مددناه على الأرض ، سبلنا جفنيه ، بكينا، ذهلنا وأعلنا النبأ عليهم .. صابر مات . قلب المأمور صخر، يطلب من الجنود إعادة النظام ، يطلب استكمال التفتيش . ويطلب الكف عن البكاء ، مُبعد بصق على الأرض ولعن الحمير الذين لا يحسون وأخرج نقوده من مخبأ سري في ملابسه وألقى بها في وجوههم :

- آدي فلوسكم ..

الأناشيد عويل .. عويل .. والشعارات دعوة للقتل .. وهذه اللغة التي نتحدث بها جميعًا .. لا تعني شيئًا قط فالشقيق الأبكم . شقيق . المهم الحب، الشيء المشترك . والكره هنا أساسي وليس مجرد ظاهرة عابرة . الطويبي .. الغرياني الجنود .. المأمور ، فنحن نتبادل السباب . والبصق ، وكدنا نتماسك بالأيدي أثناء ركوبنا الناقلة التي تحركت قليلاً على الطرق الرئيسية المؤدية إلى بوابتنا ثم أطفئت أنوارها الكاشفة وانحرفت يمينًا في الصحراء وبعد مسافة طالت ، أنزلونا وأمرونا أن نركض شرقًا .. فركضنا بأقصى سرعة خوفًا من وابل الرصاص الذي أمطرونا به فوق الرؤوس للإرهاب

. قرب الفجر توقفنا محاولين تحديد موقعنا لكننا لم نعرف شرقاً من غرب .

(٥)

حريق فى قلب الصحراء ، نار ، النار قد اندلعت فى نفوسنا ولن تخمد إلا بدم الغريانى .. ألف ميل حتى قلب الوغد .. والمأمور مجرم آخر ألقى بنا هنا كى نتوه ونهلك . وسالم أبو عوضين يحمل الآن شحنة هائلة من الغيظ .. لم يعد ذلك الوديع الذى ينام قرير العين على ضفاف النيل .. تلوث نهره بالنفط .. فهو لن يرتوى بغير دم الغريانى .. والمنبع بعيد ، والطويبى يجلس حارسًا أو صائداً بأدوات القنص .. ماء وطعام ونكات باللهجة المصرية .. ماء مثلج فى الصيف وشاى ساخن فى الشتاء .. مجرد صياد لا يهمه نوع الفريسة .. أكل عيش . والسماء تشفق علينا .. تمطر .. فنشرب من مائها ونرتوى .. خذ بِل ريقك يا سالم .. اشرب ، لا يريد .. حزنه قاتل ولن يروى ظمأه غير دم الوغد .. ستموت عطشًا يا مسكين حتى تقطع هذه الألف والشمس باردة تتعاطف معنا .. لم يبق إلا الطعام ، كبدة الغريانى نيئة .. يا للغرابة .. نفس الحزام الجغرافى فأخرجت الأرض كنوزها فى ناحية وأغدقت الخيرات على أهلها وهم قلة ، وشحت فى الناحية المكدسة بالبشر . فهل من حكمة ؟ ونحن لدينا نهر وقنال وقطن وأرز ومعادن ونفط أيضًا . تعادل . لا حقد إنما الغريانى هو الشرير .. هو القاتل. وهذه الصحراء التى هلكت جيوش الحلفاء والمحور .. ماذا ستفعل بنا ؟ بالحظ اخترنا وجهتنا وحتمًا سنصل لقرية . مدينة ، طريق . لكننا سرنا يومين حتى تملكنا اليأس ، وتذكرنا قصص الذين ضلوا فى القفار .. عطش وجوع وموت .. لكن أحيانًا جفاف يهلك البشر والشجر ثم ماء وحياة ..

وهذا الأعرابى .. من أين خرج لنا ؟ لمحناه يسرع نحونا بسفينة الصحراء فوقفنا .. أيًا كان فهو الغيث ، ملاك الرحمة ، نزل وتيمم وصلى وصنع لنا خبزًا ساخنًا بالدقيق فى الجمر ، أكلناه مع الشاى والتمر ، كُل يا سالم .. يجز أسنانه لا يرد .

سألناه عن موقعنا .. وعن هويته . قال كلامًا طيبًا استرحنا له ، كلنا عربٌ يا أولادى .. وأنتم هنا أو هناك .. فى أرض العرب . حدثناه عن الطويبى والغريانى وصابر والمأمور والسيدة ، حدث يا عمى أو (هيكى صار.. وهيكى صار) وفى الجانب الآخر يقولون عنا .. فوالة وفراعنة ، وصابر ضربوه حتى مات . استعاذ باللّه ومسح دمعتين وحدثنا عن الدنيا قبل النفط ، زمان كانوا يعانون من القحط فينزحون إلى الأسكندرية ووادى النيل ، وأهالى طبرق وجغبوب .. كانوا ينزلون إلى واحة سيوة للعمل فى جنى البلح والزيتون .. دنيا .. النفط غير الأحوال والأخلاق . وهنأنا أخيراً بسلامة النجاة .. لأننا اتخذنا مسارًا خاطئًا ، فهذه الصحراء لا ترحم .. وطالما أهلكت الجيوش والعربان والرحالة .. ولولا جمالى التى شردت ما جئت هنا أبداً . احتجزنا حتى بانت النجوم وعلمنا بها الاتجاهات ، هذه نجمة الغرب .. تصل بكم إلى طبرق فى أسبوع ، وتلك إلى سيوة فى شهر.. وهذه نجمة المهربين .. وتذهب بكم إلى السلك الشائك .. فبئر سفرجل ، سيدى عمر ، القرية ، البلاص ، فالسلوم بعد يومين . ومع السلامة ، فى أمان اللّه . ومضى يجوب الصحراء بحثًا عن جماله الشاردة ونحن سرنا وسالم أكبر همومنا . التقينا فى الطريق بشلة متسللين .. ضلوا مثلنا . جلسنا نتبادل المعلومات طلبوا منا أن نتجنب دخول السلوم .. لأن الشرطة يجمعون العائدين والذاهبين بحثًا عن قاتل ؟ من القتيل ؟ أين ؟ متى؟ يقولون شاب عثروا عليه قرب الحدود .. ضربه الجناه حتى مات .

ونحن أيضًا كدنا نهلك ، قلنا لهم التفاصيل .. ورأينا وقابلنا وتعرضنا ، رجوناهم أن يعودوا معنا حتى لا يقعوا فى شرك الطويبى المنصوب عند مشارف طبرق .. قالوا : أرزاق .. ونجرب حظنا ، وأبداً لم يقتنعوا وما كان بوسعنا أن نثنيهم .. مثلما لم يستطع أحد أن يثنينا . أرشدناهم على نجمة الغرب والهلاك .. فاتجهوا إليه يحدوهم الأمل . ونحن سرنا من جديد ، ما كدنا نقطع ميلين على أكثر تقدير حتى سمعنا وقع خطوات قوية راكضة مثل دوى الرعد . انبطحنا أرضًا نستمع ونتصنت ، فقد حسبناهم جنوداً يحاولون تطويقنا لكننا رأينا شبحًا يعدو حتى اختفى فى الظلام . استعذنا وبسملنا وجلسنا خائفين متذكرين قصص العفاريت والأشباح وأرواح الموتى والقتلى . لكنى تنبهت لأمر غاب هنا فسألت عن سالم أبو عوضين . واكتشفنا أنه الشبح الراكض . انتظرنا حتى أول ضوء وتوزعنا فى مساحة كبيرة نبحث فى الحفر ، خلف التلال ، بين الأعشاب ، سألنا الرعاة والمتسللين والمهربين .. بلا جدوى ، شعرنا بحزّن مرير لفقده وبكينا . غير أن أحد المدربين على اقتفاء الأثر .. عثر على دليل فتبعه منحنيًا .. فمشينا خلفه على أمل أن نجده نائمًا أوخائر القوى .. أو حتى ميتًا فندفنه . طال بنا المسير حتى الحدود الدولية وعثرنا على قطعة من جلبابه تعلقت بالسلك عند عبوره .. وكانت آثار قدميه تتجهان بخط مباشر نحو نجمة الغرب والهلاك .



المأزق

(١)

توقف سيل حديثه الممتع .. الموجع ، عقب وثبه فجائية أتى بها القناص. ثالث مجموعتنا الصغيرة وحارسها ، والذى تحرك منحنيًا وسط الأعشاب الشوكية والصخور ، مختفيًا عن أبصارنا خلف بقايا منزل أتت القنابل على معظم جدرانه وسوته بالأديم . لم نفهم مرماه .. لأن المنطقة برمتها يرين عليها السكون بعد اختفاء المخلوقات هربًا من شمس الظهيرة المميتة . وليس ثمة أمر خارج عن المألوف . أنزل حمدى جركن الماء زافراً من الطقس والمشوار القاطع للأنفاس ، ملقيًا سلاحه جانبًا ، خالعًا سترته ليستظل بها ، مُطلقًا واحدة من قذائفه الصائبة ضد حارسنا :

– بتاع حركات .

– تقصد أنه ..

– بهلوان .. يبحث عن بطولة زائفة .

– واجبه حمايتنا ..

– من الأشباح ؟

دائم السخرية من مهمتنا . ولا طائل وراء مجادلته ، فهو مقتنع بما يقول ومؤمن بوجهة نظره . تشاغلت بمسح العرق الغزير بكم سترتى ومنديلى المبلل ، رانيًا بأسى لموقعنا قرب السماء ، حالمًا بطير أسطورى يحملنى ويلقى بى فوق الموقع .. أو هناك فى ربوع وطنى البعيد .. مكانى الطبيعى . بدورى تخلصت من حمولتى .. مبقيًا سلاحى جاهزاً . مضت ساعات ونحن نصعد ، هبطنا الوادى قبل الشروق لجلب مياه الشرب ، بكرنا لننهى مهمتنا فى طقس مناسب ، ولننجو من ضربة الشمس ، تأخرنا والموقع مازال

حلمًا . لعنة يومية كتبت علينا ، تعب يوقف نبض القلب ، والأخطار تحيق بنا من العدو المتربص . والمؤسف أن نصف الماء يذهب هدراً خلال أوبتنا ، نرطب به وجوهنا .. أو نشربه لننضحه عرقًا ..

- ولا الحمير .

- لهذا كانوا يعلفونك .

قطع لسانك ، لكنى أحبه رغم كل شئ . نصحو يوميًا على زعقته الصباحية التي يطلقها متسلقًا صخرة عالية ، باسطًا يديه نحو السماء :

- اصح يا نائم .. سامعنى .. أين أنت ؟

يا كافر ، اصطبح . فتاح يا عليم . نلاحقه بشتائمنا .. فيتخلى عن صخرته مرغمًا من الحكمدار .. لأنه يعرض نفسه لقناصة الجانب الآخر . فيجلس مكتئبًا ، حاملاً هموم الدنيا فوق كاهله .. وكأنه المسؤول عن كل ما يحدث . نطيب خاطره :

- تتعدل .. هانت .. فرجُه قريب .

تثيره الكلمات فيشوط بقدميه الأحجار .. يفرغ فيها ثورته .

- سأشكوهم لقائد المحور .

وأين ستلقاه ؟ لن يزور منفانا . لست وحدك ، كلنا مثلك نعانى .. نتآكل .. نموت ببطء ، ولكن ما الحيلة ؟ كل المواقع يتم استبدالها شهريًا ، إلا نحن .. لما ؟ ماذا فعلنا لهم ؟ حقوقنا ضائعة .. التعيين يصل ناقصًا .. اللحم الطازج يضنون به . طلبنا أن يحلوا مشكلة المياه .. طلبنا تدعيمنا بأفراد آخرين .. طلبنا وطلبنا ، فمن يسمعنا ؟ منذ أيام التقط حمدى سرًا خطيرًا من كاتب السرية العليم بالخبايا ، فحواه أمر قيادى ، بموجبه استلم قادة السرايا مبلغًا من الريالات لاستئجار سقاه لتوصيل مياه الشرب للمواقع الشاهقة ، فوضناه تولى نقل معاناتنا للقائد بلباقته المعهودة. آب كاسف

البال .. معللاً إخفاقه لتكتمه مصدر الخبر كى يجنبه المساءلة ..

- قلت له خمنت يا أفندم .. ولهذا جازانى .

صرفنا أذهاننا عن هذه الحكاية .. آملين مرور القائد الكبير ، واعتبرنا العملية من مهامنا القتالية .. فنحن الذين نعطش وليسوا هم ، والرجال خلقوا للشدائد .. هكذا يزعمون .

- اثبت ..

انبطحنا مترقبين خطراً ، برز القناص بنشاطه البركانى من الجانب المواجه لجبل مبين - مكمن القبائل المتمردة - وهو يقود غلاماً أسره متربصاً لنا بخنجره المسنون عند المنحنى ، أخبرنا بنشوة الظفر .. كيف أنقذنا من موت محقق . لابد أنه راقبنا طويلاً ليكتشف دروبنا السرية .. فنحن نتجنب المدق الرئيسى خوفًا واتقاء لشرهم . نظرته مليئة بالكراهية .. يزوم .. يغمغم .. يشتم برطانة ، عالجة القناص بضربة دبشك فنية ليسكته .. فلعن الفراعنة الملاعين ،دفعه للأمام فكبا .. معالجًا سنة تخلخلت ونزفت ، فبصق فى اتجاهنا . بعصبية أطلق مقذوفًا لتهديده .. مرق بجوار رأسه .. فقام يجرى صاعداً ونحن خلفه .

(٢)

تخيّر حمدى جلسته فوق صناديق الذخيرة .. مراقبًا بضيق وليمة الانتقام ، تكالبنا عليه نسومه العذاب الأليم ، استعرت نفوسنا برغبة الثأر المكبوتة حين أفاد مزهواً انتماءه لقبائل مبين ، نضربه ،نمده ، بالغصب نحنيه، نطامن رأسه بالأرض ونرغمه سف التراب .. أليس رمزاً للآخرين ؟

- كفاكم .. دعوه .. أقول ..

- نقطتنا بسكوتك .

مطلبك محال ، ليس هذا أوان العواطف .. تعال فتش جيوبه . ستعثر حتمًا على الجنيه الذهبى ثمن بطولته المبكرة ، تصور رأسك الغالى وهم يدحرجونه بينهم ويعملون فيه خناجرهم .. ليخرجوا مخك ويلقون به طعامًا رخيصًا للحدأت أما سمعت كيف يسحلون ، فتش .. أين خبأت الثمن يا مفسد ؟ كاد القناص أن يزهق روحه بيديه الغليظتين ، قفز حمدى وأنقذه بمعجزة ..

- أنت مجنون ...

احتمى به الغلام .. مذعوراً .. ضارعًا :

- الأمان .. في وجهك .. في وجهك .

أحاطه برعايته ، محاولاً بالهدوء ، استخلاص ما عجزنا عنه بالعنف عرفنا سر تحامله علينا لأن بقرته ماتت .. فجاء يثأر لمصرعها . بمفرده عارض حمدى .. وابى مشاركتنا اللعبة الدامية ، كلنا عداه مذنبون ، كان فى وسعنا منع الرهان ولم نفعل .. إنها الحرب أو الملل ، فقدنا هنا أعز وأغلى ما يملكه الإنسان ؟ هزمنا داخليًا . والمؤسف أن المتراهن فلاح له فى الوطن أرض وجاموسة .. فكيف فقد تعاطفه ؟ وقناصنا نفسه فلاح عريق هزمته الأيام المتوالية من ممارسة القتال . والمشكوك فيه عودته للفلاحة ، سيحترف الجندية .. أو يسرح ليروع القرى الآمنة بغزواته .

استطاع حمدى بجواره الرقيق الإنسانى طمس مشاعرنا العدوانية ونقلنا لمناخ آخر ترفرف على ربوعه الأمن والسلام ، فجر من أعماقنا ذلك العالم الذى قبع واستكان بفعل الظلام ودوى القنابل ، فحولنا فى لحظة نادرة لبشر يحلمون .. ويتألمون ، لا فرق بين هذا الغلام ونديده الذى ينقى دودة القطن من حقولنا ، فانتابنا قلق عام على مصير الكل . نجلس شبه دائرة

نرتشف أكواب الشاى وكأننا فى إحدى قرانا .. نتسامر ، والغلام ينصت باهتمام ويتجاوب بالتدريج . هذه فرصتنا لمجالسة إنسان الجانب الآخر والذى نعاديه ويعادينا دون مبررات مقنعة . منذ هبطنا هذه الأرض الغريبة، ونحن لا نسمع غير صوت البندقية ، لم يحدد لنا أحد الهدف الحقيقى .. فلا معرفة سابقة أو ثار بايت بيننا ، حتى القبائل الموالية تنقلب ضدنا ليلاً .. حين يسود الظلام فنعجز عن التمييز بين الصاحب والعدو . ظل الغلام يستفسر عن هويتنا .. فنحاول بدورنا أن نزيل الانطباع السئ الذى رسخ فى ذهنه عن (المصاريا) :

– جئتم تشلوا أرضنا ؟

– لا يا ابنى لدينا أراضى خصبة ومدن جميلة ..

– جئتم تشتهوا حريمنا ؟

– ليس صحيحاً .. لدينا نساء رائعات الحسن .

شاهد صورة خطيبتى وأعجب بها فأهديتها له . رغبته نهمة لمعرفة المزيد، لكننا نقاطعه ، نحاول معرفة أشياء كثيرة عن دنياهم . بدأ بأبيه الذى طلع مع الرجال فى هجمة فاشلة ولم يعد .. واسيناه وأبلغناه حزننا ، وأمه صرعتها قنابل طائراتنا ، بكى فأخفينا وجوهنا خجلاً .. حتى القناص، وهو مع جدته وبقرته المأسوف عليها يقطنون البيت القابع فى مدخل الوادى .. على مرمى أسلحتنا ..

– باللّه يا أخوان ما ترموا بيتنا .

عبر التنهدات ..ومصمصة الشفاه ، غمرنا شعور عميق بالذنب ، لو عاود البكاء لانفجرت دموعنا المتحجرة أنهاراً نحن أخوة .. يا .

– شوعى .. ويسمونى حمران العيون .

عاشت الأسماء ، بعد مشاورة .. تمت الموافقة الجماعية لتعويضه بثمن

البقرة ، امتدت الأيدى المتحمسة لقيعان المخالى تخرج منها تحويشة الشهور من الريالات العزيزة والتى ادخرناها لشراء الهدايا يوم عودتنا . ونحن نودعه محملاً بالهدايا من المعلبات والريالات .. شعرنا بارتياح عظيم ، وأن علاقة جديدة قد نشأت بيننا وبين سكان هذه الجبال .

(٣)

– رحت فى داهية ؟

الرقيب حيدر حكمدار موقعنا أفاق مبكرًا من النوبة العاطفية ، مؤنبًا نفسه على سوء تصرفه .. كان ينبغى حسب تقديره إرسال الغلام أسيراً ليتم استجوابه بمعرفة القادة .

– يا عم روق .

عبثًا يحاول حمدى تهدئته ، وإعادة راحة البال إليه .. لاداهية ولا يحزنون ، فليس معنا وشاة .. كلنا رجالك وزملاء مصير ، والحياة حياتنا نتصرف فيها كيف نشاء .

– أقطع دراعى إن لم يكن الغلام جاسوسًا ؟

قناص الأرواح يستغل الموقف الناجم عن قلق الحكمدار فيعمق مخاوفه .. أمعقول يهاجم صبى بخنجره رجالاً مسلحين ؟ هل انطليت عليكم اللعبة ؟ طيبون نحن .. سذج ، تتأزم الحالة فندخل دائرة الهواجس والظنون . ترتد نفوسنا للنقيض .. تعاودنا الكراهية للجبال وكل ما فيها ومن بها . فما العمل الآن والغلام قد تبخر وتركنا للتصدع والشرخ ؟

– يا جماعة ..

– اسكت يا جلاب المصائب ..

نحاصر حمدى بالعزلة والإدانة ، طفل يستغفلنا ؟ تركناه طوال ليلة كاملة استطلع فيها أسرار الموقع من رجال وعتاد وتحصينات . عرفوا الآن حجمنا الحقيقى . مهلاً يارفاق ، لغضب القناص ما يبرره ، خسر ريالاته وبطولته وهو الشحيح الباحث عن الأضواء . وللحكمدار كمسؤول مبررات مقنعة .. لأن القائد يتصيد له الأخطاء ، أنسيتم وقفته الشجاعة يوم تظلم من انقطاع اللحم الطازج . كنا نعرف أين تذهب الأموال المخصصة لشراء الذبائح ؟ وما كان بوسعنا التظلم ، لمن نشكو ، والضباط يلعبون البوكر معًا فى خيمة واحدة .. وقائد المحور حلم لم نره أبداً .

ويوم صدرت الأوامر بدفع جماعة لاحتلال جبل الحارسة . وجمنا للمصير الذى ينتظر من يقع عليه الاختيار . كان المفروض اختيار جماعة إحدى الفصائل ، لكن القائد كتب أسماء محددة ، حيدر .. حمدى . وأنا وآخرين ممن لا يرتاح لهم . أفهم سبب إبعاده للمشاكسين وهواة التظلم والمناكفين ، لكن ما سبب كرهه لى ؟ أبداً لم ادخل مكتبه مذنبًا أو تظلمت لحق ضائع ، ربما لأنى صديق حمدى المقرب . لكنى أذكر الآن انه نهرنى يومًا لأنى حدقت فى وجهه طويلاً ، فما حيلتى وقد خلقت بعينين واسعتين، لو كنت أعرف لفقأتها أو عصبتهما . عرف كيف يؤدبنا بهذا الموقع الخطر الذى يقع أمام جبل مبين – معقل القبائل المتمردة – نزعته قبائل بن الأحمر من أيديهم لتسلمه لنا محرراً .. وهو موقع ممتاز يصلح لجميع الأغراض العسكرية ، مراقبة .. استطلاع متقدم .. حراسة طريق .. توجيه مدفعية .. إنذار مبكر . رأت القيادة احتلاله بعدد قليل من الرجال لسهولة سحبهم ولتقليل نسبة الخسائر عند حدوث هجوم مرتقب . لقد كانوا ينتظرون يوم استرداده بصبر نافذ ..

– لنفعل شيئًا يا أبطال .

(٤)

باءت المسكنات بالإخفاق والغلام مدسوس علينا ، هكذا قررنا . بهمة نتحرك ، نموه الموقع .. ننقل الخيمة .. نغير مرابض الأسلحة .. نقوى السواتر .. نعمق خنادق المواصلات .. نرسم خطة دفاعية .

جمع حمدى عشرات العلب الفارغة وعلقها بأسلاك شائكة طوق بها الموقع .. قبل حقل الألغام . لم نفهم جدوى هذا الجهد الضائع . سهرنا بالكامل ننتظر ، نتوقع مجيئهم ، الليل .. الصمت .. الأشباح .. الأعشاب .. الصخور المخايلة .. السحل .. الموت .. ارتجف ، اقترب من حمدى المهموم المحدق فى الظلام بتركيز وانتباه :

– معنا اللّه ..

– مع الحق .. لكن من منا على حق ؟

– نحن طبعًا ..

– من أدراك ؟

– سنموت شهداء .. هذا مؤكد .

– ربما .. لا أدرى .

نتمزق ، نفقد اليقين ، لا ندرى لمن نموت ؟ دفاعًا عن ماذا ؟ الليل يطول .. والخوف اللعين يأخذ بخناقى .. يأكل شجاعتى ، والرجال الساهرون القلقون حولى يجهلون فحوى هذه المعارك الشرسة التى تحصد أرواح خيرة شبابنا . فمن أرسلنا ؟ ولأى هدف ؟ وهناك فى القاعدة خلفنا ينامون آمنين، محصنين خلف عشرات المدافع وحقول الألغام الكثيفة ، ونحن كبش فدائهم . وفى الوطن البعيد .. يتناقلون أنباء بطولتنا يغنون ، يا حبايب بالسلامة . كنا نهز الشوارع نهدر . فوق التل .. تحت التل

وحوش الغابة والوديان .. لا دخان .. ولا نسوان .. عا .. عا . نحن المغاوير.. حماة الحما.

– هس

الرياح ساكنة والعلب تخشخش ، ثمرة حيلتك بانت الآن يا حمدى ، ثمة أقدام تعبث بشراك العلب .. تتخطاها . احبسوا النيران ودعوهم يقتربوا، حمحمات .. تنفس مكتوم .. زفرة حارقة .. عطس خفيف والأعصاب مشدودة متوترة ، ملول ينفذ صبره ضاغطًا على التتك بدفعه رشاش ، وبعدها تزغرد البنادق الآلية ، وكالعادة تفتح القاعدة أسلحتها الثقيلة البعيدة المدى لتدك جبل مبين والوديان المحيطة به .. دكًا عنيفًا مركزًا. هكذا يحدث كل ليلة .. تكفى طلقة واحدة طائشة لإشعال الموقف .. مولد.. زفة عروس ، مئات الأطنان من الذخائر تلقى عبثًا بغير طائل ، لمجرد شجرة عبثت الريح بأغصانها فبدت لجندى مرهق شبحًا لمتسلل أو لدفعة رشاش أطلقها الجانب الآخر إثباتًا لوجوده . كانت ليالينا معارك وهمية تضخمها المخاوف وضياع الهدف وسوء القيادة . وتمر الساعات البطيئة .. فنركض مع الشروق تجاه الشرك .. ننقب عن آثار لمعارك الأمس . لقد آثروا الصمت ولاذوا بالفرار حين اكتشفناهم مبكرًا بفضل حيلة حمدى المبتكرة..

ـ ها هم الأوغاد ؟

تدهمنا المفاجأة الأليمة ، نقف مبهوتين لبرهة ، ثم تغلبنا طبيعتنا الساخرة فتنطلق الضحكات المرة مجلجلة صاخبة لتمسح عن قلوبنا آثار الخيبة ، ثلاثة نسانيس أثارت كل هذه الزوبعة .. وهى التى كانت تعبث بشراك العلب ، فتصورناهم متسللين . تراكموا بجوار بعض متعانقين وقد غربلت الذخيرة أجسادهم ، كان شكلهم مثيرًا للرثاء .. عليهم الرحمة ..

دفناهم وأبرقنا للقاعدة بالنتائج .. لا خسائر من جانبنا .. خسائر العدو فادحة وقد انسحب بجرحاه وقتلاه .. أوامركم . تلقينا تهانيهم الحارة وترقية لأول من اكتشف التسلل .. رشحنا حمدى بالإجماع فهو بطل الموقعة دون منازع ، لأن الفكرة من عنده .. وهى بلا شك مفيدة ورائعة وسنعممها بتوسع . لكنه تنازل عن الترقية للقناص الذى كاد يطير من السعادة وقضى يومه يصنع أشرطة للرتبة القادمة .

(٥)

– أف من الحر .

– السماء تآمرت ضدنا ..

الخيمة صهد ... هربت منها لأستظل بصخرة حمدى الأثيرة .. كان قد سبقنى إليها ليقوم بنوبته فى المراقبة النهارية . عرفته مستجداً فتصادقنا ، يزاملنى الموقع والمرقد والدشمة وملء المياه .. أرتاح إليه وهو كذلك ، لولاه لفقدت عقلى . فالحياة هنا قاسية ، رهيبة ، طقس متقلب ، طعام ردىء ، أيام متشابهة ، مخاوف ، وحركتنا محدودة .. محصورة فى نطاق الموقع وما حولها ، نقضى يومنا بين النوم والشجار والقصص المكررة السخيفة عن غراميات مختلفة والجنس والآمال الكاذبة ولعب القمار . الشئ الوحيد الذى يربطنا بالوطن والحياة هوالمذياع الذى مللناه . كنا نود لو أتيحت لنا الفرصة لنهبط الوديان والقرى لنتنسم رائحة الحياة وعبقها ، لكن الأوامر الصارمة تمنعنا الاختلاط حتى بالقبائل الموالية لنا ، فالثقة مفقودة بين كل الأطراف .

– متى نعود .. متى ؟

- هنا مثوانا .

- أحقًا ما تقول ، أليس لنا خلاص بغير الموت ؟ حتمًا سيأتى غيارنا ويتم استبدالنا حين نتظلم لقائد المحور عند مروره ، نختنق هنا .. نتآكل . وجبل مبين الأسطورى أمامنا يخرج لسانه ساخرًا ، تقصفه الطائرات يوميًا .. فيردون بالقنص وقطع الطرق ، وبث الألغام . ما جدوى إخضاعهم والقبائل الموالية يتذبذبون بين الجانبين يقبضون الرواتب الهائلة ، ثم يتمردون طالبين المزيد .. ثمنًا للسكوت ، وليس إيمانًا بالثورة ، ودماؤنا تذهب هدرًا . أتنتهى الحرب يا ترى لو سقط هذا الجبل ؟ عجز الأتراك قبلنا فى اقتحامه ونحن أيضًا بكل ما نملك من أسلحة يعضدنا الآلاف من قبيلة ابن الأحمر ، فما سره ؟ لعلوه الشاهق أم لصلابة من يدافعون عنه ؟ معادلة يصعب حلها.

نبهت حمدى لهدف يقترب من منطقة الخطر ، قد يكون مستهدفًا جنودنا .. أفراد طلبة المياه ، أو ينوى تلغيم الطريق ..

- أو مجرد راعى ؟

كان منصرفًا بجدية فى حفر اسمه بطرف السونكى فوق الصخرة .. للذكرى الخالدة . كانت مهمة المراقب النهارى متعددة .. حرمان العدو من المراعى وإعادة زراعة الأراضى الواقعة جانبى الوادى كى لا ترتفع أعواد الذرة وتحجب عنا الرؤية .. ومنع الاقتراب من الجدول تأمينًا لجنودنا ، وإبلاغ المدفعية بأى تجمعات ورصد أوكار الرشاشات والأماكن التى سيتم ضربها ليلاً ، وكذلك إقلاقهم . اقترب الهدف من المدق الرئيسى الصاعد إلينا فاطلقت عليه طلقة تحذير ، صاح صوت رفيع موسيقى .. عرفنا صاحبه:

- الأمان يا إخوان .. صاحب .

ارجع يا شوعى .. ارجع ، وقف حمدى سعيدًا يحيى الضيف الوافد ،

ويحثه على الصعود ، تجمع أفراد الموقع متطلعين بمشاعر متباينة للغلام الذى جاءنا بهدية ثمينة ، جرتى ماء وقسط حليب . فرحنا بهما ، فترك دابته ترعى وجلس معنا .. يحكى .. ونحكى .

(٦)

أصبح شوعى زائراً مستديمًا لموقعنا ، ياتينا بالماء والحليب والبيض والدجاج ليقايضنا بالأرز والمكرونة والدقيق والمعلبات ، لم نعد نتحاشاه ، نتعلم لغتهم .. ونعلمه حقائق الأمور ، البلوبيف لحم بقرى وليس خنزيراً كما يزعمون لك .. والملوخية وجبة لذيذة .. جرب .. حاول ..

– هذا حق الحمير ؟

يقولها بإصرار رغم أنه يجمع لنا أوراقها التى تنبت وسط القمح ولكنهم يجهلونها .. فتأكله حميرهم ، أنه مجرد ناقل لما يدور فى أذهان الآخرين ، يحيرنا بأسئلته الضخمة : لماذا تتبولون سناب ؟ يعنى وقوفًا .. لأننا نلبس سراويل بها فتحات أمامية ترغمنا على ذلك ، لا يا إخوان .. الكلاب والكفار يفعلون ذلك . نصحح معلوماته .. ونقترب منه .. ومنهم.. نمد جسراً بيننا من الثقة ، نحاول العبور فوقه لدنياهم .. تحول من زائر لصديق لا غنى عنه ، من أجله توقفنا عن الضرب النهارى ، تركناهم يرعون ماشيتهم وأبقارهم فبدأوا يحرثون أراضيهم استعداداً لموسم الأمطار. سرى بيننا صك شفوى عن طريق التعاطف بوقف إطلاق النار ، فيما عدا القصف الجوى الذى لا نملك أمره .. وضربات المدفعية الساحلية . كانوا فى الواقع يخشون موقعنا لضربها المؤثر .. المباشر . ثم تطورت علاقاتنا بهم ، هبطنا الوادى لنجالس الرعاة ونحادثهم متجاوزين الأوامر والحذر .. رغم الأنباء

المتواترة من الجهات الأخرى عن الغدر والخيانة ، تجرأ حمدى فدخل قراهم وقابل شيخ القبيلة برفقة شوعى مرتدياً زيهم الوطنى حتى لا يثير مشاعرهم بالزى الكاكى . كان يئوب من تلك الزيارات حزيناً وضميره مثقل بالعذاب : هناك يا رفاقى .. خلف هذا الجبل .. عالم فقير .. مريض .. جاهل .. يحصدهم المرض وتبيدهم القنابل ، يألهون الإمام ويأكلون القات المخدر طوال النهار ، أعظم وجباتهم .. خبز أسود بالشطة إنهم ضحايا الإمام والجمهورية على السواء . قنابلنا لن تغيرهم ، وإنما جهد فكرى خارق ينقلهم لعالم الإنسان المتحضر . ذقنا طعم السلام أخيراً بعد طول عناء ، توقفوا عن بث الألغام والقنص . لكن شهر العسل لم يدم طويلاً ، أفقنا ذات يوم على انفجار لغم أودى بحياة طقم داورية المهندسين بالكامل . أنه عمل مدبر .. خسيس ، لقد وضعوا اللغم فى جزء من الطريق الرئيسى يمر تحت موقعنا مما يحملنا مسئولية ما وقع فلماذا نقضوا الاتفاقية وعكروا الهدوء ؟ وما هى الدوافع ؟ إن بعض المتطرفين من أبناء القبيلة كانوا ينفرون منا .. أيكونوا هم الفاعلون ؟ بودنا الخبر اليقين . الرقيب حيدر يوشك على إصدار أوامره بضرب القرية والرعاة ، حمدى يستمهله .. سأذهب لأرى الأمر ؟ .

– لا تذهب .. آمرك .. لا تذهب .

لكنه يذهب وقلوبنا تخفق خوفاً عليه وجاء بأنباء مؤكدة بأن الفاعل متسلل من قبيلة موالية للجمهورية . لقد أقتفوا أثره وهم مستعدون لإثبات ذلك لمن يهمه الأمر والسبب كما قيل .. خلافات مالية طارئة ، لأن قائد المحور اقتطع لنفسه جزءاً من الإتاوة الشهرية ، فشاءوا تحذيره بهذه الوسيلة الدامية . لا ندرى كيف نتصرف ؟ جهودنا ضاعت هباء ، اقترح حمدى أن نرتب لقاءاً سريعاً بين شيخ قبيلتهم وقائد سريتنا لكشف اللعبة

قبل أن تهب الرياح وتمحو آثار المتسلل .

(٧)

قبل أن ينفذ حمدى فكرته .. سبقته الطائرات والمدفعية بضربات انتقامية رهيبة عشوائية . ثم رأينا طائرة هليوكبتر تهبط قريبًا منا فعرفنا أن زائرًا كبيراً مهما فى طريقه إلينا ، فمن يكون غير قائد المحور ؟ جاءنا الفرج أخيراً . انهكه المطلع وهد حيله فأخذ يشخط وينطر من أول وهلة ، جمعنا صفًا واحداً ولعن آباءنا .. هذا الذى انتظرناه طويلاً .. جاء يشتمنا فكتمنا أحلامنا وآلامنا فى صدورنا وسكتنا ما عساه فاعل لنا وهو بهذه الحالة ؟ لم يأت زائراً ليستطلع أحوالنا المعيشية وإنما لأن حدثًا وقع وهز منصبه .. فجاء يدافع عن وجوده .

– انظروا ؟

وجه الضباط والمرافقون أنظارهم حيث أشار القائد ، ليشاهدوا الرعاة وقد خرجوا بعد الغارة الجوية يرعون أبقارهم دون خشية . عاود السب من جديد :

– أفراد هذا الموقع .. خونة .. متواطئون .. لا يتم تغييرهم .. يحرمون من الإجازات ويعزل حكمدار الموقع .

خرجت من صمتى .. رافعًا يدى لأقول شيئًا مما نعانيه :

– يا أفندم نحن ..

– أنزل يدك

– يا أفندم ..

– يجازى بعشرة حبس .

استرد حمدى شجاعته منفجراً بسيل من الشكاوى الأليمة :

– نتعب يا أفندم من جلب الماء .. التعيين يصلنا ناقصاً .. سل قائدنا وهو بجانبك الآن عن اللحم الطازج ؟

– اسكت .

– يا أفندم ..

– سبعة أيام حبس .

فقد حمدى كل قدرة على كبح جماح نفسه . مما يخشى وهو محكوم عليه بالبقاء ومحروم من الأجازات .. ليكن ما يكون . فجر قنبلته الناسفة .. ألقاها بقوة فتطايرت شظاياها لتصيب الجميع .. من يقتسمون أموال الذبائح .. ومن يقتسمون الأتاوة مع القبائل :

– إن الذين وضعوا اللغم يا سيدى من قبائلك الذين تدفع لهم الرواتب . وهناك من يملك الدليل وعلى استعداد لتقديم البرهان .. وأنت تعرف السبب يا سيدى ؟ لأنك ..

– لم يصبر القائد حتى يكمل حمدى الاتهام .. هوى بكفه على وجهه .. صارخاً .. مهدداً :

– ينتظر مجلس عسكرى .

بإشارة آمرة رقد أحد الضباط خلف مدفع رشاش وأمطر الرعاة بوابل من الدفعات السريعة المتلاحقة .. وتعقب آخر الشاردين منهم بعدة قذائف هاون .

– سنؤدبهم .

انصرفوا بعد وضع حمدى تحت حراستنا على أن يرحل لهم عند طلبه لإتمام إجراءات المحاكمة . تعرضنا طوال الليل لرد فعل عنيف من الجانب الآخر . فى اليوم التالى جاءنا شوعى متخفياً .. طالباً منا الرحيل :

– بكوا * يا مصاريا .. بكوا لحين ؟

(*) بكوا : ارحلوا .

اخبرنا ان هجومًا كبيراً .. سيقع الليلة علينا وعلى القاعدة معًا ، فجميع القبائل قد أفسدت وانضمت سراً مع القبائل المتمردة .. بسبب القصف الجوى ، وأنهم توافدوا بالآلاف ليكونوا جبهة واحدة :

– بكوا يا أخوان .. حالفين ما يتركوا فيكم .. كافر ولا مسلم .

(٨)

تحققنا بالرصد الدقيق وجود تعديلات جوهرية على مشارف الوادى ، ربما لها علاقة بالاستعداد الجارى .

وكذلك اشباح رجال يقفزون بين الصخور باعداد كثيرة لا نعرف ماذا يقصدون ؟ ولأول مرة نكتشف عمليات إخلاء هادئة تتم وسط البيوت والأكواخ الواقعة خلفنا فى نطاق القبائل التى لا تنتمى لكلا الجانبين . كانوا من العازفين فى ذهب الإمام وريالات الجمهورية . فماذا يضمرون ؟ أخرجوا من حيادهم ليشاركوا فى مجريات الأمور ، كى لا يوصموا فيما بعد بالخوف والخيانة ؟

إن شوعى ليس كاذبًا .. انه الشيء الوحيد الصادق فى هذا الركام .

أرسلنا مضمون معلومتنا للقاعدة بإشارة عاجلة .. طالبين تعزيزات فورية ، فجاءنا ردهم مستفزاً لمشاعرنا :

– يرحل لنا الجندى حمدى بالحرس اللازم وبكامل مهماته . فيما نحن الآن .. وفيما هم يفكرون ؟ يالرخص أرواحنا . نشعر بالمهانة .. بالغيظ ،

– إلحاقًا لإشارتنا نطلب تعزيزات أو سحب أفراد الموقع .. ونحملكم المسئولية .

– رداً على إشارتكم سنبلغ معلوماتكم لقائد المحور ويراعى مستقبلاً

إرسال الإشارات بأسلوب مهذب .

- إلحاقًا .. ردًا .. إلحاقًا .. ردًا ، حتى حل المساء وفقدنا كل أمل فى وصول نجدة قبل اليوم التالى . جهزنا الموقع للدفاع الدائرى وتسلم حمدى رشاشه منضمًا إلينا ، كانت ليلة معتمة... حالكة السواد ، إنهم فى الغالب يفضلون الليالى القمرية ، فهل غيروا أساليبهم القتالية ؟ العتمة تتسلل داخلنا .. وطن .. حب .. موت .. غدر .. سلبية .. أوامر .. استهانة .. أرواح .. شباب ضحايا .. مذابح . دعونا نعيش أو نموت لهدف أسمى ، لو متنا الآن . ستلعن أرواحنا كل من تسبب أو شارك فى قيام هذه المذابح ، ولا يهمك يا حمدى .. اطلبنى شاهداً وأنا فداك .. لو كان قائد المحور بريئًا .. ما أسكتك ؟ هو والقبائل .. أوغاد.. يثرون على حساب أرواحنا .

دقات طبول خافتة تترامى من جوف الوادى ، يتجمعون الآن . أنوار متفرقة ظهرت فى قمة جبل مبين هابطة لأسفل ، ما الأمر ؟ أبلغ بهم الحمق لدرجة التقدم بالمشاعل ، شقت أصوات المدافع السكون ، والتى انطلقت قذائفها فى اتجاه المشاعل .

- حيلة بارعة .. يشغلون مدفعيتنا بمشاعل كاذبة .

الحرب علمتهم . من قبل كانوا يتحاشون الدبابة ويسمونها العامياء ويهربون من أمامها ثم عرفوا كيف يضعوا الخرق فى شكمانها ويعطبونها . رأيت هجومًا صاخبًا .. مضحكًا ، قاموا به مهللين .. مكبرين بالمشاعل فوقعوا صرعى بسهولة . ليسوا الآن بالبلاهة السابقة .. يسهل إبادتهم . مازال فى روع قيادتنا أن موقعًا صغيراً يستطيع الصمود أمام هذه الجحافل . منتصف الليل بالتقريب انهالت علينا قذائف البازوكا من عدة اتجاهات .. فكيف استطاعوا الوصول إلينا بهذه السرية ؟ بطلقة هاون مضيئة اكتشفناهم فاستطعنا اصطياد بعضهم ورد الباقى على أعقابهم .. كانوا

مجرد مجموعة اقتحام متقدمة . إذن فنحن نواجه تكتيكًا عصريًا ؟ هذه فرصتك الجادة يا قاتل الأبقار والنسانيس ؟ أرنا كيف ستصمد ؟ طلقة مضيئة أخرى بينت الجراد المنتشر وسط الصخور والأعشاب .. نمل .. نمل .. انطلقت بنادقهم تفجر حقول الألغام المضادة للأفراد لتفتح امامهم الطريق سهلاً إلينا نضرب .. كسرنا موجة الهجوم الأولى وتناقص عددنا فردان . كانت القاعدة تتعرض مثلنا لهجوم ابرقنا لهم مستنجدين بطلعة طيران ليلية فالموقع محاصر ودخيرتنا توشك على النفاد

– يُخلى الموقع فوراً فوراً . فوراً

(٩)

الآن يطلبون منا الإخلاء ؟ وكيف يمكننا الانسحاب ؟ إنهم يحلقوننا من جميع الاتجاهات .. وكل من يحاول الفرار مصيره الموت . لنبق ، لنمت بشرف . هذا قرارنا النهائى المنطقى . إن طلعات الطيران الليلية محظورة بسبب ارتفاع الجبال . فلو استطعنا الصمود للفجر لنجونا من الهلاك فهل هذا ممكن أمام زحفهم الخرافى ؟

– يا فراعنة .

– نشتهى راسك يا حمدى .. يا خائن .

فى نظرهم أنت خائن . تذكر كيف تم القصف الجوى يوم سوقهم الأسبوعى . وأنت الوحيد الذى جاب قراهم ، وأنت أحد أفراد هذا الموقع الذى تم منه ضرب الرعاة أنت برئ ونحن . لكن من أدراهم ؟ مسكين حمدى . موصوم بالخيانة . ومعرض للمحاكمة

- سلموا يا مصاريا يا كفار يا أولاد فرعون

ملأوا الفضاء بالطلقات الحمراء .. معلنين بذلك انتصارهم .. كانت هذه طريقة يتبعونها عندما يسقطون موقعاً ، فأشعلت قمم الجبال أضواءها بتحية المباركة والمشاركة والتهنئة ، داهموا خيمتنا الخالية البعيدة عن الدشمة وأحرقوها .. مهللين .. مكبرين .. ناشدين الأغانى القومية ، ملكهم الزهو بما أنجزوا .. وبسقوطنا الدانى . ارتفع صوت حمدى الراجى .. محاولاً وقف المذبحة الوشيكة :

– الأمان يا إخوان نحن فى وجوهكم

– نخنث عاركم .

ليسوا فى وضع يسمح لهم بالإنصات . جاء يوم الحساب وسندفع ثمن خيلاءنا الكاذب . لكنهم سيبادون .. هؤلاء التعساء الواهمون ، فمازال فى حوزتنا أسلحة ندخرها لساعة الحسم ، قنابل يدوية شديدة الانفجار وقاذف اللهب . لكن هناك من فقد اتزانه فى القاعدة لرؤية الخيمة المحترقة وأعيرة النصر الفضائية وأضواء قمم الجبال وسماعه لأناشيدهم . وبحماقة لا تغتفر وجهت مدافع القاعدة فوهاتها نحونا وأخذت تقصف الموقع بمن فيه من مدافعين ومهاجمين .. أوقفوا الضرب .. أوقفوا الضرب . أصيبت أجهزة سماعهم بالصمم فلم نعد ندرى من نحارب ؟

– القتلة ..

بجنون يضرب حمدى القاعدة والمهاجمين معاً . اهتز الجبل ، تمايل ، ارتج ، أنين ، صرخات . تدفقوا كإعصار مدمر ساحق وانقلب القتال بالسلاح الأبيض .. خناجر .. وسناكى .. بينما الصخور تنهال على الجميع تردمهم .. وتردمنا .. قوة رحيمة اسقطتنى فى حفرة أو بين صخرتين .. لا أدرى . وكأننى فى كابوس خانق .

(١٠)

وحوش الغابة والوديان .. عا .. عا .. طابور نصر .. أكاليل زهور .. استقبال .. عائدون .. مفقودون .. مدافن جماعية . معاشات .. أرامل.. ثكالى .. عويل نساء .. لطم .. ملابس سوداء قرى . مدن. أبناء .. شباب . قبائل .. ثورة .. مساندة . ريالات ذهب .. اتاوة.. غدر خيانة .. قطع طريق .. الغام . تتار هجوم قصف.. إبادة .. أمهات .. زوجات . عرائس .. ولدى . زوجى .. خطيبى .. أمى .. أمل .. انتظار إخطار .. شيك تعويض .. وسام .. بسالة .. موت.. بطولة .. ترقية .. أنات خافتة من تحت الردم . استخلص ساقى المحشورة المهشمة العظام .. أجرها خلفي ، اسعفونى يا رفاق .. أين أنتم ؟ أزحف .. أبحث .. هنا كان يقوم موقع قبل أن يمر فوقه التتار ؟ ألم شتاتى المبعثر .. أحاول إدراك حقيقة الموقف بعد أعتم ليلة مرت بعمرى القصير . الطائرات تملأ المنطقة ، تقصف ، تبيد فلول المندحرين .. تلقى قنابلها الحارقة وغازاتها السامة . أعشاب الوادى .. أشجارها .. أكواخها .. كلها تحترق مع الأحياء. ورائحة الغازات وشواء اللحم تكاد تخنقنى معهم ، جثث بالمئات .. لا حصر لها . وصمت الموت مخيم على الغالب والمغلوب بينما الجبال مازالت كما هى .. شامخة تسخر من هوس الجميع وجنونهم . أين رفاقى لماذا صمتوا ؟ ومن الذى انتصر ؟ ومن هناك .. ارتال من جنودنا يتقدمون لإعادة احتلال الموقع ، ولابد أنهم فى الجانب الآخر يستعدون لمعاودة الهجوم . عن ضالتى أبحث بين الموتى المتلاحمين ؟

حمدى مفصولاً راسه . مقطوعًا لسانه . مشطورًا بالطول لنصفين

انفجَار

زحف بشرى يتدفق على موجات ، من أحياء بعيدة وقريبة ، من الشوارع والحوارى والأزقة ، البيوت والمكاتب . وفى دقائق اجتمع خلق عظيم أمام الجمعية الاستهلاكية . زحام خرافى يفوق الوصف ، رجال متفاوتى الفئات ، صبية يحجزون أماكن لذويهم أو لبيعها للراغبين ، دلالات يجلسن صابرات توقعًا لوصول أى شىء . وحين هلت بشائر توزيع الأرز ، تعالى الصراخ والتنافس والتضارب على صدارة الطابور ، وكأن المدينة خرجت لتوها من مجاعة طاحنة ، وكأنها آخر شحنة أرز فى البلاد ، كأن الأرض لن تنبت ، كأن الحرب قامت . بعضهم وقف دون حاجة لسلعة محددة .. شراهة منقطعة النظير . ويمتد الطابور طويلاً قلقًا متوترًا ليملأ الطوار والشوارع الجانبية . وثمة زحام لفئة مميزة تلتف حول عم زينهم ، كاتب البونات الشهير من المعارف الموصى عليهم ، البلطجية ، ومن لهم تقدير خاص لدى مدير الجمعية وموظفيها ، والذين التزموا من البداية فى تشكيل الطابور الرئيسى .. الشرعى ، تشتعل صدورهم غيظًا .. يحتجون .. يتذمرون .. يجأرون بالشكوى :

– خد من الطابور يا زينهم ..

– كل واحد عنده دم .. يقف فى الطابور ..

– بطلوا كوسة بقى

– خلو عندكم ضمير ..

– ماحدش أحسن من حد ..

– فين مدير الجمعية ؟

– وفين العسكرى ؟

- يعنى لازم يمشونا بالعصاية .. !

والشرطى المكلف بحفظ النظام .. ضئيل ضعيف متساهل ، من المجندين الجدد وليس مثل عمالقة زمان بشواربهم المبرومة وسماتهم المميزة وحزمهم المشهور فى تنفيذ القانون .. ابتلعه الزحام وظل منشغلاً بفض المشاجرات الناشبة بين النسوة ، خلص نفسه بالكاد .. وابتعد ظافراً بشكارتين من الأرز .. ساوم عليهما دلالة .. وربح .

والأستاذ صابر المصرى موظف كبير له مركزه فى وزارة مجاورة .. جاءه النبأ فأسرع ينحشر بكل وقاره بين المتزاحمين ، فلفت إليه الأنظار .. لأن أمثاله من موظفى الدولة .. يحصلون على طلباتهم بإدارة قرص الهاتف دون عناء .. لكنه طراز فريد من البشر ، لا يأخذ ولا يعطى ولا يستثنى ابنه، يدخل البيوت من أبوابها ويرد من يجيئه بتوصية من مكتب الوزير ، فجلب لنفسه المتاعب وناصبوه العداء ولقبوه بالأستاذ (قفل) ، وتجاوزوه ورقوا الأستاذ واصل مديراً عامًا وتركوه يشبع بحزمه وشرفه .. فما أهمه ، لأنه لا ينشد من الدنيا سوى الستر والأمان .

- يا زينهم .. خد بالدور أحسنلك ..

لا يكف منذ وقف فى هذا الطابور المتجمد عن تذكير زينهم بالأصول وعدم المجاملة على حساب الواقفين .. وإنذاره بالحسنى قبل أن .. ، لكن زينهم هو أحد أسباب الفوضى .. بل السبب الرئيسى .. لا يخشى أحداً استناداً على من يقدم لهم الخدمات ..

- ستى بتسلم عليك يا زينهم ..

- ماتنسانيش يا زينهم ..

- خد بالك منى يا زينهم ..

- هابعتلك البواب يا زينهم ..

انتخبوا زينهم . عاش زينهم . أشهر الرجال .. يريح .. يعذب ، وينظر باستخفاف للأستاذ صابر الذى نفد رصيده من الصبر .. فينفجر ساخطًا :

- مش معقول كدة يا زينهم !

والمدير يخرج على فترات ولا يعنيه أمر الساخطين ، ويمر على الطابور ويبعد الدلالات المعروفات ، موجهًا معارفه لزينهم بإيماءة متفق عليها ، والشرطى آثر السلامة وانشغل بالخادمات الجميلات ، يغازلهن ويساعدهن.

والأستاذ صابر مسئول شخصيًا عن محنته فى مدينة لن يترك فيها الغلاء شرفًا لشريف . لو أنه تكيّف قليلاً مع تطور الدنيا واستوعب المثل الخالد (شيلنى وأشيلك) ما اضطر لهذه الطوابير أو غيرها .. لكن القفل المسوجر فى رأسه ضاعت مفاتيحه ، القانون ، لا أقدر ، الدور ، الأصول . المجد والرفاهية للأستاذ واصل المحبوب ، وله الحسرة والطوابير .

وهذا الغلاء الكافر يستحيل مواجهته بمرتب الحكومة ، منذ بدأت الأزمة وهو يهتف من أعماقه بأنها ستتعدل .. ولا تتعدل . تمر السنوات والأسعار تلتهب وترتفع .. وترتفع . يسد ثقبًا .. فتنفتح ألف حفرة ، الحفرة الواحدة تبتلع ميزانيته دفعة واحدة .

مدارس .. جامعات .. كتب .. أمراض .. ملابس .. أعطال الثلاجة والتلفاز والسخان .. السباكة .. العيد . مصاريف شهر رمضان .. الضيوف .. طلاء الشقة .. تنجيد المراتب .. نشل المرتب .. الخصومات .. الأحذية .. الأقساط .. مفاجآت لا تنتهى .

تفاصيل .. تفاصيل .. الجحيم فتحت أبوابها له ، والشهر كابوس مقيم، ثلاثون يومًا ، ملعون الشهر ، ملعونة الأيام والدنيا . كل صباح ميلاد أزمة ، دائمًا يفتح عينيه على كلمة بغيضة : هات .. هات . بكل طاقته يحاول.. يجرى ، يلهث ، من جمعية هنا .. لأخرى فى آخر المدينة

. بحثًا عن السلع الرخيصة المدعمة والكل وراءه يلهب ظهره بلا رحمة : البنت تبكى لأن فستانها قديم وكل بنات الجامعة يلبسن الموضة ، الولد يضرب عن الذهاب للمدرسة لأن بنطلونه مرتق ، والزوجة تصرخ فى وجهه يوميًا :

ـ يا راجل .. اتصرف اتحرك ، اعمل لك همة .. فلان اشترى سيارة وهو أقل منك درجة، وفلان يملك شقة ، وزيد غير أثاث البيت ، وعمرو يصيّف فى الثغر كل عام .. وانت لست أقل منهم

ـ طيب يا امرأة .. اسأليهم من أين لهم بالمال وهم مثلى موظفين ؟!

وهى لا يهمها منطقية الإجابة .. إنما فقط .. تطلب . وحين يئست منه .. لزمت الفراش متوجعة بشتى الأمراض .. الضغط ، السكر ، القلب ، المصران الغليظ . وتركت له إدارة البيت فوجد نفسه بغتة .. وسط أمواج اليم العاتية .. والشاطئ بعيد وهو تائه بلا بوصلة ولا خريطة ولا نجوم وربما لا شاطئ على الإطلاق ولا حتى طوق للنجاة .

باع قطعة الأرض الموروثة . باع مصاغها . استبدل من معاشه ثلاث مرات . استدان . طرق الأبواب المشروعة . تخلى عن التدخين . عن المقهى . عن الزيارات . عن ، وعن . لم يبق إلا الطعام . ولا حل . الغلاء يطارده وعشرات الموظفين كباراً وصغاراً تشتريهم شركات الانفتاح فيفتحون أدراجهم للمقاولين والموردين والمصدرين والشياطين ويخرجون من أزماتهم .. بعضهم يصل للشاطئ .. وقلة يذهب بهم سوء الحظ إلى ليمان طرة أو يفتضحون . وهو للآن يحلم بالموت على فراشه مستوراً ولا ستر وسط هذا الأتون . أنه مكشوف على الملأ .. فى الطوابير الجهنمية ، فى محطات الحافلات اللا معقولة ، فى بدلته الباهتة ، فى انكسار عيون الأولاد، فى عجزه عن توفير الحياة الكريمة لأسرته . والأستاذ واصل ينعم

بالرفاهية والمنصب الجديد ، لديه شقة عصرية فى أفخر أحياء المدينة ، لديه السيارة الخاصة والسيارة الحكومية بسائقها .. حين ضاقت به السبل ذهب يائسًا يستنجد به ويطلب معونته رغم ما بينهما من تنافس وظيفى.. الرجل رحب به وبشره خيرًا .. وفى دقائق أنهى موضوعه والحقه بعمل مسائى فى كبرى شركات الاستثمار وبمرتب خيالى فاق كل تقدير . والعمل بسيط .. مجرد مستشار . فرحة وبشرى وسعادة غامرة شملت الأسرة حتى المريضة قامت من السرير . سيارة تأتيه فى المساء لتنقله للعمل الجديد وتعيده ، وهناك يستقبلونه بترحاب ، له مكتب وثير ومشروبات مجانية وساعى خاص ، مدير الشركة يجالسه بالساعة والاثنين يدردش معه.. لكن أين العمل ؟ ما نوع الاستشارة ؟ بعد أيام ساورته الشكوك بعد أن قرأ ملفات وأوراق متشابهة فى مكتبه بالوزارة وفى هذه الشركة . ونشط عقله فى التقصى .. ليكتشف – يا للهول – أن مصالح هذه الشركة مرتبطة بوزارته بل وبالقسم الذى يرأسه بالذات . يا خبر . يا نهار أسود . عليك اللعنة يا أستاذ واصل . وظل لأيام فى حيرة قاتلة .. الاختيار الصعب بين عواقب القبول ومغبة الرفض والعودة للعسر . أرق . قلق . حيرة . خوف. ماذا يحدث لو اكتشفوا أمره فى الوزارة .. السجن والفضيحة . وكل هؤلاء الذين يعيشون فى بحبوحة لماذا ظل أمرهم خافيًا ؟ كاد يُجن . هو واثق بأن الأستاذ واصل سيحميه .. مادام أصبح من محاسبيه . ولماذا لا يكون شركًا نصبه له واصل هذا بسبب الشكاوى التى كتبها ضده لأنه ترقى فى غير دوره . قبل أن ينفجر رأسه اتخذ القرار الصعب وفر ناجيًا بجلده من مصير مجهول . ما الحل إذن وقد ضيّع فرصة العمر ؟ أنه (قفل) فعلاً وسيظل رهين الأزمات ، لقد مزقته الظروف .. ينام بالمهدئات ويصحو منتفخ الجفنين ، يثور لأتفه سبب .. ويتحاور بالعضلات . فى شهر واحد

انتقل لقسم الشرطة ثلاث مرات بحثًا عن الصح وسط مئات الأخطاء . بدأ بعامل أنابيب البوتاجاز الذى استغل أزمة عابرة ويوزع الأنابيب سراً وبالمساومة . تقفى أثره فى الشوارع حتى عثر عليه فى ركن خفى مثل باعة الممنوعات . وعده بالمجئ ولم يف بالوعد ، عاد إليه ثائراً من هذا التلاعب وطالب بأنبوبة فوراً . خيره الولد بين أن يأخذ الأنبوبة بنفسه أو يدفع سعراً مضاعفًا، مع أنه تعود دفع جنيهًا كاملاً تسليم الشقة . ركبته عفاريت الدنيا وصمم على سعرها الرسمى وبالقوة . . وبيننا القانون والقسم . الولد أهانه بكلام جارح :

– بهوات آخر زمن . . ما تاخدها ببلاش احسن . . ولا هاتلك وابور جاز وامشى على قدك .

دمه يفور . يغلى . يده ترتعش . ترتفع . تهوى على وجهه بصفعة فتلقى ضربة هائلة بالمفتاح الانجليزى وسالت دماءه ، إسعاف . شرطة . محضر . . فقاطع عمال الأنابيب البيت والشارع والمنطقة كلها . . فسخط عليه الناس وخرج بلقب جديد . . (أبو أنبوبة) . . فيالها من القاب ؟ وهو لا يكف عن المصارعة كالثيران ، فى البيت والعمل والحافلات . يا لهذه الحافلات القاتلة التى لا تقف فى المحطات ، طالما شكى السائقين ، طالما بحث عن مفتش واحد يستعين به ، حتى يئس وفكر فى وضع الحواجز على الطريق ، فى سوط يلهب به ظهور المستهترين منهم ، فى مسدس يفجر به إطار كل حافلة لا تحترم المحطة . ما سر هذه الفوضى ؟ ألا من رادع ؟ ومنذ أيام . . طالت وقفته . ساعة كاملة فى محطة بلا مظلة تقيه من جهنم شمس يوليو الحارق بعد يوم عمل حافل بالنكد والتعب . جائع ، قرفان . . ويحلم بالعودة للبيت. الحلم المستحيل . حافلة شبه فارغة تركتهم وأسرعت تسابق الريح. . سبوا . . لعنوا . سخطوا . ثم لا شىء . أخرى

وقفت على بعد شاسع من المحطة .. أسرعوا إليها .. كباراً وصغاراً .. شيوخًا ونساءاً . وحين اقتربوا .. تحركت ولم يلحق بها غير فدائى تشعلق على السلم وكاد يلقى حتفه . ثالثة جاءت ممتلئة للنوافذ والأبواب . والرابعة رصدها على مسافة بعيدة تسير جهة الشمال ومن سرعتها الفائقة أدرك أنها لا تعلم بوجود محطة هنا أو على طول الطريق ، خط سريع طوالى جديّد خاص بالسائق والمحصل والمحظوظين .. فيالها من مهزلة ، يعاوده فوران الدم .. فيطير عقله ويفقد الصواب ، يندفع بعصبية لنهر الشارع ، يعترض طريقها ، وليرغمها على الوقوف رغم تحذيرات الواقفين وخوفهم عليه . ليكن احتجاجًا داميًا .. أزت العجلات أزيزاً مخيفًا من الفرملة المفاجئة وانحرفت الحافلة نحوه ..

تكاد تهرسه .. تراجع فى آخر لحظة .. تعثر ووقع . والسائق نزل حاملاً قطعة حديد مندفعًا نحوه بعدوانية .. شاتمًا :

– يا مجنون يا ابن الكلب ..

حال بينهما الركاب وأنقذوه من ضربة مميتة . تفككت مفاصله ، قام مُنفضًا ملابسه وماسحًا حمام العرق من وجهه . والسائق يطلق عليه سيلاً من السباب :

– إيه البلاوى دى .. روحوا موتوا فى ستين داهية بعيد عنى .. جاتكم مصيبة تاخدكم ..

هو نفسه لا يعرف علة تصرفه .. جنون . يأس . نفاذ صبر . انتحار . موقف شجاع . حماقة . ونظرات الركاب المستغربة تحاصره .. تطلب تفسيراً مقنعًا بينما المحصل يقولها صريحة فى سؤال جارح :

– هما سابوك من الخانكة ليه ؟

تجاوز الإهانة وتساءل وما يزال يرتعش :

– مش فى محطة يا ابنى .. ؟

– على كيفنا ..

– على كيفكم إزاى والعربية فاضية ؟

– إحنا حرين .. اشتكى .. اللّى عندك اعمله ..

– يا ابنى البلد فيها حكومة ..

انفعل المحصل . قام من مقعده . وبكل قوته دفعه للوراء صائحًا بنرفزة :

– بلا حكومة .. بلا بتاع .. احنا بنخاف واللا إيه ، غور من وشى وخللى نهارك يعدى .

قام غاضبًا وهوى على وجه المحصل بواحدة من صفعاته التأديبية .. وكانت معركة انتهت فى قسم الشرطة بعد ادعاء المحصل بسرقة الإيراد . فى اليوم التالى نفر من الحافلات فبحث بين زملائه عمن يوصله بسيارته فوجدهم جميعًا يتحججون .. فقرر العودة سيرًا . طقس مميت ، أرصفة مشغولة بالسيارات .. والناس السائرين كالتائهين . حتى السير معاناة . لا يدرى كيف يسمحون لهذه السيارات أن تسد منافذ المشاه ؟ بعد محطتين خارت قواه ، أسند ظهره على سيارة مركونة ووقف يحلم بمن يعود به للبيت .. لا مفر .. تاكسى .. تاكسى ، يقترب من نهر الشارع .. شبرا .. شبرا .

– شبرا يا أسطى ؟

– المعادى ..

– شبرا .. شبرا ..

– آسف مش طريقى ..

اللعنة . أين رجال المرور ؟ لابد من تعليق المشانق لهؤلاء الأوغاد . زمان .. قبل عصر الانفتاح .. أيام كانت الدنيا دنيا ، كان يركب سيارة

أجرة بنظام الأبونيـة الشهرى ، سائق عجوز ينتظر فى مكان محدد .. يذهب ويعود به للعمل مع آخرين يقطنون متجاورين .. قنوعًا . فأين هو الآن ؟ مات أو أصيب بلوثة الانفتاح . لا شيء .. سيظل حتى الغد ينادى بلا فائدة فهل يعاود السير ؟ أيلجأ للحافلات ؟ أليس بين كل أصحاب هذه السيارات الخاصة من له قلب طيب . الكفر . حتى فى وزارته ينجعص كل مدير عام فى سيارة بمفرده . لا عدل ولا رحمة . تاكسى . تاكسى . ينتقون الزبائن من العرب ، الأجانب ، السيدات الأنيقات ، سكان المناطق البعيدة الراقية . شبرا وبولاق والشرابية وإمبابة محظور دخولها . نكتته . وهذه المدينة مليئة بالنكات المرة . غمرة حزن مرير لأنه بات غريبًا فى وطنه . زمان كان الموظف الحكومى هو السيد ... لا شيء الآن . بعد حين تعطف سائق معه راكب بعباءة .. بالوقوف ، أطل برأسه وقال بإيجاز :

– اركب ..

وثب وجلس بجواره ملقيًا نظرة سريعة على العداد فوجده مرقمًا بمبلغ يفوق الجنيه ، فأدرك أن الراكب جاء من مسافة بعيدة نسبيًا . أراد تحديد الموقف من البداية حتى لا يقع لبس فيما بعد :

– تاخد كام يا ابنى لحد شبرا .. ؟

– اللى تدفعه يا بيه ..

– بس ريحنى وقول ..

– يا بيه كلك نظر .. الحكاية بسيطة ..

هل عثر على كنز بين النفايات أم أنه يحلم ؟ توقف السائق مرات والتقط أكثر من راكب .. نزلوا جميعًا قبله ، والراكب ذو العباءة دفع مبلغًا وتنازل عن الباقى فشكره السائق وظل يدعو له طول الطريق لابد أنه أحد السادة الجدد ، مقاول ، تاجر جملة ، معلم ، جزار ، لص ، تاجر مخدرات وكان

هو آخر المغادرين . فأصر السائق على توصيله حتى باب البيت . .

– ربنا يسترها معاك يا أمير . .

قدر مبلغًا معينًا للمسافة من الدقى لشبرا مثلما دفع فى المرات النادرة التى استقل فيها سيارة أجرة وأضاف عليه بقشيشًا مناسبًا تقديرًا لمروءته وقدمه له شاكرًا فسمع صوتًا كريهًا أيقظه من حلم جميل ·

- شويه يا بيه

تساءل منزعجًا وهو لا يصدق ما يسمعه

- شويه ؟ شويه إزاى ؟

- طبعًا شويه أنت مش شايف العربية

مر بعينيه الفاحصتين على السيارة من الأمام للخلف للداخل فوجدها مثل آلاف تزحم شوارع المدينة وتملأ جوها بالهباب والضجيج وتستنزف جيوب مواطنيها . . فى حيرة يسأل :

– مالها العربية ؟

– مرسيدس جديدة زى العروسة . . . مش كارو

– جديدة قديمة وأنا مالى ؟

– يعنى تقدّر وتدفع

– عاوز كام خلصنى ؟

– جوز جنيهات .

مراوغ . جشع . حقير . رفض الاتفاق ليستغله فيما بعد ، لا يفرق بين سائح ومواطن ، بين موظف حكومى وتاجر حشيش . . والعدل يحتم أن يتقاسم الجميع قراءة العداد لا أن يدفع كل منهم ضعف بنديرة تعمل قبل ركوبهم بمسافات ، أفاق من سرحة الصدمة على الصوت الكريه يحاول تجريحه

ـ كنت فاكرك بيه بصحيح أتاريك مقلب .

ـ خليك كويس . .

ـ بطلوا قنزحه واركبوا أتوبيس أبو شلن .

ـ اخرس . .

ـ واستمر الحوار الحاد لينتهى فى القسم ، رآه الصول النوبتجى وعرفه فرحب به ساخراً :

ـ أنت برضه ؟

وربت أمين شرطة باسمًا على كتفه :

ـ أهلاً بالأستاذ مشاكل . . !

السائق ، ابن السوق ، المدرب ، أخرج علبة سجائر مستوردة وبعثرها على الحاضرين وضغط على يد الصول بطريقة معينة وفى غفلة من الجميع ، فسرى بينهما اتفاق ما .

واستغل الموقف العدائى ضد الأستاذ صابر لصالحه ، وقام بدور المجنى عليه ومثله بالصوت والحركة فعداده سليم وهو مستعد لفحص أكبر خبير فى المرور . . لكن الأستاذ يشك فى ذمته . . ويتهمه بالتزوير . خرج الصول للمعاينة وتساءل ورائحة الانحياز تفوح من استجوابه :

ـ هو راكب معاك منين ؟

- من المعادى يا بيه . .

- والبنديرة كانت مكسورة ؟

ـ كاسرها قدامه يا بيه . .

ـ حد ركب معاك غيره ؟

ـ لوحده يا بيه

فى حياته لم يذهب للمعادى ، والوزارة مقرها الدقى ، وأوراقه تثبت

ذلك ، والسائق كاذب ، والصول متواطئ ، وهو لا يدرى كيف يواجه هذا الموقف الملفق ؟ بمن يستنجد وليس معه شهود ؟ هل يضيع الحق بسبب علبة سجائر مستوردة ؟ ماذا يفعل الآن ؟ وهو متعب وفى أمس الحاجة للراحة .. أخرج النقود كارهًا وقدمها للسائق الذى وضع كلتا يديه فى جيوبه وقال بكبرياء مصطنع وبصوته الكريه :

- أنا أبقى أجدع منك .. خليهم علشانك اشتريلك بيهم قميص...

وعقب الصول قائلاً :

- أصيل والله ..

علام إذن كانت هذه الضجة ؟ لابد أن هناك مؤامرة لإهانته ، نصل حاد انغرز فى ضلوعه ، يالهم من أوباش .. ود لو يمزق النقود .. لو يضرب .. لو يبصق .. لكن على من بالتحديد ؟ عاد سيراً .. مرهقًا .. مهدوداً .. إنه يحتاج لوقفه طويلة مع الذات يراجع فيها الماضى .. ويستعد للمستقبل ، لأن شيئًا ما قد وقع لهذه المدينة فى غفلة منه . شىء خطير قلب كيانها وغير مفاهيم أهلها وعليه أن يجد وسيلة جديدة للتعامل معهم . فى الأيام التالية ، فكر بعمق ، تشاور بتوسع ، وقرر بحسم : الاستقالة ثم السفر لبلاد المال أو الالتحاق بشركة انفتاحية بعد التحرر من قيود الوظيفة . ليس أمامه بديل .. فهو أبداً لن يمد يده مرتشيًا بعد هذا العمر .. ولن يقتل أسرته جوعًا ، لقد تعبوا معه من الفول الذى يتشكل لهم على المائدة فى صور شتى ، الأرز .. مفلفلاً ومحشيًا وبالصلصة ، السمك المستورد المحنط الذى تعافه النفس ، لحم الجمعية الذى تلفظه المعدة . أنه يشتاق لبلطى النيل الصابح والجمبرى والبورى ، يشتاق للحم الضأن والدجاج البلدى بمرقته اللذيذة ، يحلم بفاكهة الموسم قبل أن يسعر ويختفى من الأسواق ..

يحلم ببدلة جديدة ، بمواصلة مريحة يحس فيها بآدميته ، بنوم هادئ ،

وكل أحلامه موءودة . وزينهم هذا المتسلط بطابوره المزعج يثير أعصابه . ولابد من موقف حازم حياله . فهل يعجزون وهم كثرة عن مواجهته ؟ ما الذى ينقصهم يا ترى ؟ أى خوف يحسونه تجاه قزم تافه مثل زينهم .. يتلاعب بهم بلا رقيب . سرب الفكرة لمن حوله واقترح عليهم وسيلة محددة .. أن يخرج واحد يتولى تنظيم الطابور مع مؤازرة الجميع له .. طيب من ؟

هذا .. لا .. ذلك . ثم استقروا عليه .. فهو وقور وله وزن اجتماعى . وافق بلا تردد وخرج بحماسه يزيح ويطرد الملتفين حول زينهم ويعيدهم لآخر الطابور ، بينهم بلطجية وعساكر شرطة ومرور وجيش ومباحث وسيدات . تصدى له بلطجي رافضًا الامتثال ومحاولاً الاشتباك معه وعرقلته ، هب الطابور فى صوت واحد هادر مخيف أوقعت الرعب فى قلب البلطجى وزينهم . حتى الشرطى وصلته الرسالة فجاء متشجعًا لأداء واجب تخلى عنه طوعًا .

قال أحدهم متحسراً :

– مش كان من الأول .

عقب آخر مطمئنًا :

– ما احنا لسه فيها والخير كتير ..

هدأت النفوس القلقة بتحرك الطابور ورفرف السلام بين الواقفين فأحس بسعادة لأنه استطاع أخيراً وبعد طول معاناة أن يتصدى لأحدهم وينجح بمعاونة الآخرين الذين طالما أثاروه بسلبيتهم . والذين رقوا الأستاذ واصل استناداً على منافع مشتركة وتقارير كاذبة ... سيكتشفون يومًا أنهم مخطئون . لكن سعادتهم لم تدم طويلاً بمجئ سيارة شرطة نزل منها أمين دخل الجمعية .. فتهامسوا وخمنوا وتقولوا ؟ هل جاء للقبض على زينهم

والمدير على أثر شكوى ؟ هل جاء للمشاركة فى النظام ؟ وهل وهل . الذين فى المقدمة التقطوا بآذانهم المرهفة أمراً يصدره المدير لزينهم بتسليم الأمين حصة القسم من الأرز ، تسرب الخبر بسرعة وعاد القلق يخرب النفوس ، وكمية الأرز فى تلك اللحظة بالكاد تكفى الواقفين منذ ساعات . صمت مترقب . سكون ينذر بالخطر . والشكارات تنتقل من الجمعية للسيارة والكل يعد فى صوت واحد . صدمة وذهول . دمدمة كتلك التى تسبق الزلازل والانفجارات . والأستاذ صابر من شدة الذهول .. ارتبك ، فهذا أمر جديد غير متوقع لم يضعه فى الحسبان فالذى يعرفه أن للحصص جمعيات فئوية مثلما فى وزارته ، وما يحدث هنا مجاملة صارخة .. فهل يهرع لأقرب هاتف ويستنجد بالشرطة ضد الشرطة ؟ أم يستعين بالمطافئ ؟ أنه فى حيرة .. إذ لابد من عمل . ومن آخر الطابور .. ارتفعت أصوات الذين طردهم .. شامتة .. ساخرة . تريد له الهلاك :

– يعنى الأستاذ سكت ؟

– ما تقول حاجة يا فالح ..

– ما احنا مانتشطرش إلاّ على بعض .

– يا عم دا حتة بتاع ومهياص .

– يقدر يعملهم حاجة ؟

– ولاّ حتى يقدر يفتح بقه !

والذين فوضوه .. ينظرون إليه بخيبة أمل ويشفقون عليه من التدخل فى مسألة تبدو لهم أكبر من قدراته . وهو فعلاً لا يدرى كيف يتحرك .. فالذى يعطى هو المدير والذى يأخذ من الحكومة .. (وزيتنا فى دقيقنا) والمسألة كلها لا تستاهل هذا كله . لكن هل يقبل بالهزيمة بعد أن قطع شوطًا كبيرًا؟ ولما لا يكون هذا الأرز كله فى طريقه لبيت واحد من

المسئولين مثل الأستاذ واصل عدوه الأبدى .. يستحيل أن يأخذوا هم ويحرمونه بلا مكابدة ولا عناء .. عليهم اللعنة . لماذا يقف فى الطابور ويجلسون فى بيوتهم وينعمون بالخيرات .. ويترقون ؟ هذه قضيته ولن يتهاون فيها أبداً ومهما كانت العواقب .. تقدم للسيارة ثائراً .. وإذ بالطابور خلفه فى شبه مظاهرة ، قال آمراً وبقوة لا يدرى من أين واتته :

- ولا شكارة تانى ..

رددوا العبارة كالكورس فسمعها من فى أقصى المدينة واستيقظت عدة أجهزة أمن تتصنت وتترقب فى محاولة لتحديد موقع الانفجار الوشيك .

المدير انسحب للداخل حين رأى الشرر المتطاير من العيون ، وسمع دوى القنبلة التى نزع فتيلها بانعدام أبسط قواعد الإدراك لديه . وزينهم انكمش خلف مكتب البونات . العمال توقفوا عن التحميل .. وأمين الشرطة تساءل مستغرباً :

- وتطلع إيه أنت بقى ؟

- عفريت أزرق .. مش مهم .. بس ولا شكارة تانى ..

- فهمنى أنت مين قبلى ؟

قال أحد الواقفين ساخراً :

- يعنى لازم يكون مين علشان تخاف ؟

الحلقة ضاقت حول السيارة ، والأمين أدرك بوعى الشرطى المثقف أن الأمر ليس سهلاً ، وأن ثمة عاصفة هوجاء ستهب فى لحظات ، فتلفت حوله مستنجداً :

- فهم الناس دى يا زينهم ..

وزينهم تضاءل وعاد لحجمه الطبيعى ، مجرد كاتب بونات لا يملك شيئاً . ونشوة الانتصار أصابتهم بالزهو ، فنسوا أو تناسوا العواقب وضغطوا

على الأمين لإرغامه .. بالقوة لإفراغ السيارة :

- نزّل

- طيب أعمل تليفون .

- نزّل .

- بعدين تندموا ..

قال صوت محرضًا :

- دا بيخوفنا .

رد صوت آخر بجسارة .

- يخوف مين يا عم .. دا كان زمان ..

وارتفعت أصوات أخرى فقدت نبرة الاعتدال ، لأشخاص غاظهم أن يقفوا ساعات أملاً في الحصول على شكارتين من الأرز ، فيكتشفون أنهم قد يخرجون من المولد بلا حمص . وأصوات أخرى دخيلة .. تبحث عن الخراب ..

- نزّل يا جدع ..

- شيّل يا وله ..

- كسّر يا وله ..

- اضرب يا جدع ..

وتسلل اللصوص والبلطجية وحولوا الغضب النبيل لنهب وسلب ، فطارت المعلبات والأجولة والأكياس والسجائر والنقود والزيوت والصابون ، ووجهت ضربات موجعة لزينهم والمدير والعمال .. وفي دقائق بدت الجمعية كأنها تعرضت لهزة أرضية مدمرة . والأستاذ صابر وقف مذهولاً .. مصعوقًا ، فهو لم يتصور قط أن تصل الأمور لهذه الدرجة .. وصفارات وطلقات في الهواء وكردون من الأمن المركزي حول الجمعية والشوارع

المحيطة بها .. والأستاذ صابر هو الهدف والعدو . تعرض لتمهيد عنيف قبل عرضه على النيابة بحيث أنه بات مستعداً للتوقيع على أوراق الدنيا حتى لا يعادِ تمهيده من جديد ، وطارت البرقيات والرسائل بين جهات الأمن المختلفة، وأضيف إلى ملفه محضرى الاعتداء على المحصل وعامل توزيع الأنابيب ثم جميع الحوادث الأخرى التى قيدت من قبل ضد مجهولين ، الانفجارات والحرائق وتصادم القطارات وسقوط الطائرات وانهيار العمارات وحوادث الشغب والمظاهرات وكل القضايا التى استعصى فك طلاسمها . وتم الاستعانة بشهود ممن يسترزقون من خيرات الجمعية ، وكذلك الذين قبض عليهم ويطلبون النجاة . وعرضوه وسط مجموعة من الناس ليتعرف عليه الشهود :

– شاور على اللى كان ؟

– أهه ..

– طلع اللى ؟

– دا يا بيه ..

– ومين اللى ؟

– الأفندى ..

– واللى ؟

– برضه هو .

– شفت عمل إيه ؟

– كسر ..

– وإيه تانى ؟

– ضرب .

– وكمان ؟

– سرق .

– مين اللى حرض الناس ؟

– الأفندى .

– وضرب زينهم ؟

– هو يا بيه .

– كان بيقول إيه ؟

– تسقط ، يسقط . .

– وقال إيه تانى ؟

– اضرب واهرب . .

– شاور على اللى ؟

– أهه .

– واللى ؟

– هو برضه .

وظل الأستاذ صابر المصرى الموظف الكبير الذى خرج باحثًا عن شكارتين من الأرز فى الحبس المطلق لشهور طويلة ، وجاءوا به ليوم الجلسة تحت حراسة مشددة بينما وقف مئات الجنود يحرسون قاعة المحكمة والمداخل والأسطح والشوارع ويفتشون الحاضرين بدقة وحرص ، وبينما القاضى يهم بنطق تلك الجملة ، حكمت المحكمة بـ . . . ، فى نفس تلك اللحظة ، كانت المدينة تمارس حياتها المعتادة ، زينهم يلعب لعبته الحقيرة مع الطوابير ، وسيارات الأجرة تفر من أمام المصريين كأنهم وباء ، وسائقى الحافلات يتجاهلون المحطات ويتسابقون لتعويض بعض الوقت بسبب حضورهم للعمل متأخرين أو لكسب دقائق يقضونها فى نهايات الخطوط لاحتساء الشاى والبوارى . . وشركات الانفتاح تغدق العطاء لموظفى الدولة لتمشية أمورهم وتمرير دجاجهم المعفن لبطون المستهلكين ، والأستاذ واصل تم ترشيحه وكيلاً للوزارة ، . .

حكايات غير مسلية
من داخل المبنى المنعزل

١ - الجسم الغريب

.. سور المبنى النائى المنعزل أمامه ، طريق العودة خلفه ، السماء الضبابية البعيدة فوقه ، أرض الغربة تحت قدميه ، كارت توصية لفتح الأبواب الموصدة فى جيبه ، صورة أشعة الصدر فى يده وسبب الغم والمحنة ، وبجواره مريض يتألم ويقيئ متساندًا على امرأته ، حارس يساوم زائرًا ، نساء يندبن بملابس الحداد . اشرأب بعنقه مستطلعًا فرأى عربة الموتى خارجة بجثمان وأخرى تنتظر إذن الدخول .

والأستاذ سيف الحق منشطر بين الإقدام والنكوص .. يتمنى الشفاء ويثبطه المجهول ، والهدف على بعد خطوات ، البناء الواسع باسمه المنفر وأمراضه المعدية .

أفزعه عويل النساء ، تراجع مضطربًا ، ركض بأقصى سرعته خلف الحافلة العائدة .. سبقته . دار بعينيه المذعورتين باحثًا عن وسيلة مواصلات تنقله بعيدًا ، أخفق وعاد لوقفته المترددة ، قريبًا من السور .. بعيدًا عن الباب .

وهو يكره المبانى الحكومية عامة ، الدواوين ، السجون ، المستشفيات ، المعتقلات ، المعسكرات ، له ذكريات محزنة بين حجراتها وعنابرها وزنازينها . طفولة المرض والفقر والأوبئة .. الكوليرا والحميات ، كانوا يحملونه أو يجرونه لتلك المستشفيات . حقن الطرطير المقئ ، شربة الانكلستوما المرة على الريق ،عينات بول وبراز من داخل دورات مياه خشبية قذرة ، النوم صفوفًا على الأرض ،الحجر الصحى ، حقنهم الملوثة التى

سببت له الخراريج . القصر العينى بأدويته المائية والجيرية التى كانوا يعبونها له فى قوارير غير معقمة يبتاعها من الشارع .. أدوية عديمة الفائدة ، قد تضر ولا تنفع .

ليس الآن غلامًا مرغمًا ، كبر والدنيا تغيرت . ولا يعقل بقاء المستشفيات الأميرية على حالتها السالفة ، تلجها ماشيًا وتغادرها مقعداً أو محمولاً .

يقلقه تأوه الرجل الجالس منحنيًا ، يدنو منه ، يُسرى عنه ، يتألم معه ، وامرأته تتوسل للحارس ، تسترحمه ،تدعو له بالصحة وطول العمر ، تستحلفه بالأنبياء والمرسلين ، أن يرق قلبه ويسمح لمريضها بالدخول قبل أن تطلع روحه .. والحارس جامد لا يلين .. متمسك بالإجراءات والروتين ..

ـ فين يا ست أوراق التحويل ؟

ـ وأجيبهم منين يا أخويا !

ـ ما أعرفش .. مش شغلتى ..

نفذ صبرها .. فثارت ، سبت ، لعنت ، ولولت ، تجمع حولها الناس يستفهمون منها ، وهى تشرح منفعلة : زوجها مريض منذ عام بالرشح المائى على الرئتين ، عالجوه عن طريق المستوصف منزليًا لشهور طويلة دون تحسن، طالبتهم بتحويله للمستشفى فرفضوا لأن حالته لا تستدعى الدخول .. فأين تذهب به ؟ قال منافق مؤيداً الحارس :

ـ وهو فى إيده إيه ؟

رد عليه آخر متعاطفًا معها :

ـ يسيبها تخش للدكاترة يا سيدى ؟

والأستاذ سيف الحق لا يفهم الألغاز : مستوصف ، تحويل ، أوراق ، علاج منزلى ، هنا مريض يتألم .. وهذه مستشفى عامة لفقراء الناس .. فما

هي المشكلة ؟ يستفزه موقف الحارس الذى نهر المرأة وطردها مع رجلها ، فيندفع إليه غاضبًا :

– تطرد عيان يا راجل ؟

– وانت مالك .

– بتعمل كده ليه !

– مالكش دعوة .. وهما جابوك محامى ؟

منذ وعى الدنيا فى هذه البقعة من العالم وهم يصدونه دائمًا بأنه ليس محاميًا عنهم ، وهو لا يطيق السكوت حتى يقطعوا لسانه .. ولن يستطيعوا. وهذا الرجل ينبغى حصوله على فرصة العلاج .. فمن أجله أُنشئت هذه المستشفيات . قال للمرأة محرضًا :

– اشتكيهم ..

ومن سيسمع شكواها ؟ بوسعه القيام بالمهمة لو تشجع ودخل . يفعلها فيتقدم بالكارت للحارس الذى يقرأه ويبتسم ساخرًا ملوحًا به فى وجه المرأة وزوجها :

– شوفوا الناس الجاهزين بيعملو إيه ؟

وموجهًا كلامه الجارح إليه :

– قولهم يا أستاذ .. وريهم السكة ..

اقتربت المرأة مستفسرة وكأنها وجدت المنقذ :

– سكة إيه .. فهمونى ؟

– اسألى الأفندى ..

الأستاذ سيف وجد نفسه فى موقف المتهم بعد لبسه روب المحامى ، والمرأة توجه إليه نظرات متوسلة لكى يدلها على السكة ، والحارس شامت متآمر ، يزيد الموقف تأزمًا :

ـ ما تقولهم يروحوا لمين يا سى الأفندى ؟

عن أى سكة يتحدث هذا الأحمق ؟ إنه يجهل الطرق الملتوية والمسألة برمتها مجرد صدفة .

فعندما ذهب لعيادة الدكتور المسيرى المشهور .. شاكيًا من ألم منغص وبلغم ، أملاً الشفاء على يديه بعد فشل صغار الأطباء فى علاجه ، تعرض لفحص دقيق بالسماعة وجهاز الأشعة النظرى ثم صورة فورية للصدر . عند الصورة توقف المسيرى ، دقق النظر ، رجع لكتب الطب ، تحير وحيره معه ، فكر فركبه الهم ، هرش رأسه وحك ذقنه وسأله مندهشًا أن يتذكر ابتلاعه لجسم غريب ؟ .

ـ جسم غريب يا دكتور ! مثل ماذا ؟

قال الدكتور موضحًا :

مسمار صغير مثلاً .. أقل من حجم الدبوس ، تسرب للجهاز التنفسى بطريقة ما واستقر داخل الرئة اليسرى .

داخله غريب أو غريبان فى جسد واحد . أهذا هو سبب ألمه التاريخى ؟ أما تكفيه متاعبه الجمة فيبتلى بمسمار . يحاول تذكر الأشياء التى ابتلعها فى حياته : مرة انزلق مليم لمعدته ونزل مع البراز . وأخرى وقفت شوكة فى الزور .. فأرغموه على ازدراد بيضة سليمة وكاد يختنق . وفى الحربى .. سقوه جردلاً من الماء القذر . وشرب عشرات المقالب من رفاقه . والمرّ حتى الثمالة . فهل بلعّوه مسماراً وهو لا يدرى ؟ لقد مارس مهنًا عديدة بعد طرده من الحكومة مرتين وسدهم أبواب العمل الرسمى فى وجهه .. ليس بينها أعمال النجارة أو ترقيع الأحذية القديمة أو حتى لعبة الحواة الذين يمضغون المسامير وينامون فوق الخناجر . لب مأساته عدم حذقه لألعاب الحواة ، كان ولا يزال صاحب موقف دفع مستقبله للتمسك به .. من

الواحات لجبل الطور للسجن الحربى لرهن الاعتقال المنزلى . حتى حين يأس وكف عن مضايقتهم .. لم يتركوه لحاله ، كلما ضج بعض الناس على بعد مئات الأميال .. حاصروه بالأسئلة : أين كنت عندما .. ؟ ما صلتك بالذى ..؟ اثبت لنا مكان وجودك فى تلك اللحظة ؟ حتى بات شاغله الوحيد هم شهود الرؤية .. فى البيت والمقهى والشارع وعلى الفراش .

أخذته سرحة ذاهلة رده منها المسيرى مفسراً سبب شكوكه والأساس الذى بنى عليه التشخيص : الصورة يا أخ بها نقطة ساكنة مستقرة متكسلة ، ويستحيل أن تكون سببًا للألم والبلغم ، ربما هاجمك ميكروب السل فى وقت مبكر فقاومه جسمك القوى وتغلب عليه وهزمه .. هذا احتمال. لكنها للغرابة .. ليست نقطة عادية ، لأن نقطة الدرن لا تأخذ هذا الشكل الهندسى . ولذا ، أرجح كونها جسمًا غريبًا .. وهذا احتمال آخر .

ولكى نرجح أحد الاحتمالين ، لابد من إجراء بعض الفحوص والتحليلات لكى نصل للحقيقة : أشعة بالصبغة الملونة ، منظار للرئة ، سرعة ترسيب للدم ، فحص ومزرعة للبصاق . فإذا اتضح أنه جسم غريب.. فينبغى إزالته جراحيًا وقد يلتقطه المنظار وينتهى أمره .. ما رأيك؟

وافق بلا تردد .. لأنه فى غربته لا يحتمل منافسًا . لكن من أين له بمصاريف الفحوص وقد دفع آخر مليم ثمنًا للصورة العادية ؟ وارتياده لعيادة المسيرى برسم كشفه الباهظ .. لا يعنى الميسرة .. أنه مجرد زبون عابر وهو مثل الملايين ، عاش وسيموت بأمراضه وآماله .. اكتفاء بالأحلام، طعامًا وشرابًا ومسكنًا صحيًا . فهل ظنه المسيرى صيداً سهلاً له ولمستشفياته الخاصة ؟ . سأله عن قراره .. فتنهد بحرقة معتذراً .. لأنه فى الواقع ، لا يملك حتى ثمن وجبة العشاء . والدكتور مصمم على عدم

إفلات هذه الظاهرة الطبية الغريبة من يديه . بغته ، وقف محدقًا بفضول فى وجه الأستاذ سيف وسأله :

– أين رأيتك من قبل ؟

لم يتلق الإجابة .. فعصر ذهنه مفكراً :

– سمعت بيك .. فين ؟

– تشابه يا دكتور

– بتشتغل إيه حضرتك ؟

– كنت ..

– متزوج ؟

– سابتنى ..

– عندك أولاد ؟

– خدتهم ..

– أيوه .. افتكرتك .. فى الجرايد !

أشاح الأستاذ بوجهه عابسًا .. متوقعًا نهاية درامية مع المسيرى ، فهو يذكره بأصحاب أعمال تقدم إليهم للالتحاق بوظائف أعلنوا عنها وبمجرد اطلاعهم على مستنداته ويعرفون تاريخه حتى يعتذروا عن قبوله بادب أو غضب .. فهل يفعل المسيرى مثلهم ..

– اسمع يا ابنى .. من واجبى أساعدك .

وأكمل بعد تفكير متأن :

– وبصرف النظر عن مواقفك .

– شكراً ..

ظل المسيرى يهاتف عدداً من أصدقائه الأطباء وتوقف مع تلميذه .. الدكتور سعيد بحر ، رئيس قسم جراحة الصدر وشرح له الحالة الفريدة التى

امامه ، ورتب معه الأمر وأعطى للأستاذ سيف كارت التوصية .. وأعاد إليه أيضًا المبالغ التى دفعها فى عيادته .

عند الباب لا يزال .. بكارته ومسماره وهمومه ، والحارس يضايقه ويحتجزه بحجة انشغال من جاء لمقابلته فى غرفة العمليات . وهو يكره الانتظار .. نصف قرن ينتظر بلا جدوى . والحارس لا يخجل .. يساوم المترددين بلا استثناء حتى أقارب الموتى . وهو قرفان منه وممن على شاكلته ، صورة كريهة لموظف عام .. يتدنى لمستوى السيجارة والخمسة قروش ، ضاق الحارس به وبخله ووقفته المعوقة بجواره ، فافرج عنه وعن عربة الموتى .

وهو يخطو للداخل .. التفت وراءه .. فشاهد الحارس منفردًا بالمرأة يتهامس معها فى حديث جاد . سار للأمام فالتقى بسيارة موتى ثالثة .. تشاءم من شكلها وتمنى أن تجئ نهايته بعيدًا عن جوف إحدى هذه العربات اللعينة .

٢ - إجازة إجبارية

خرج له الدكتور سعيد من غرفة العمليات مرحبًا ، عرضه على الجراح الزائر الذى أبدى اهتمامًا بحالته الغريبة وقبله فورًا بين من يتولى أمرهم ، كتبوا له تذكرة دخول تحت الملاحظة لمدة شهر ، لأن لأشعة الصبغة والمناظير مواعيد وترتيبات وإعدادًا مسبقًا للمريض ، الأستاذ استبشر بحرارة المقابلة وتحين الفرصة وتحدث مع الدكتور عن مأساة الرجل الذى سيموت بجوار الباب ..

سأله الدكتور سعيد منزعجًا :

– هو معاك ؟

بذل مجهوداً لغوياً وتعبيرياً فائقاً لتصوير حالة الرجل كما رآها ، استمع الدكتور بأدب وقال ساخراً :

- يا ريت عندى سراير كفاية .. كنت فتحتها على البحرى

لديه قائمة انتظار طويلة بسبب أزمة السراير ، وتتفاقم أزمته بمن يوفدهم زملاؤه الأطباء من عياداتهم الخاصة وآخر الموصيين أخلى له سرير مريض منحه أجازة إجبارية حتى موعد العملية وعليه بتدبير سرير لزبون المسيرى الذى يتوسط لغيره أيضاً استدعى السستر وفوضها تدبير أمر السرير ، اعتذرت . قام بنفسه باحثًا لف به الملاحظة والطوارئ وانتهى عند عنبر الجراحة الذى يترأس قسمه . تخير وقفته تحت النافذة .. بعيداً عن رذاذ أفواه الساعلين .. قابله النزلاء بالشكوى المعتادة : عن سوء الطعام والدواء الذى لا يفيد والتعب ، ظهرى يا دكتور ، صدرى ، بطنى ، قلبى .

تساءل بسعة صدر وتفهم :

- وإيه تانى ؟

رد عليه صوت متحشرج ساخطًا :

- ليه الريفادين بتصرفوه لبتوع الدرجة بس ؟

- علشان بيدفعوا فلوس يا شاطر .

عقب آخر بحدة :

- والغلابة يعنى يموتوا ؟

رد الدكتور مازحًا :

- يا ريت ..

إنهم يجهلون الفرق بين عقار وآخر ، لكنهم يسعون وراء الأغلى استناداً على اعتقاد كاذب ، بأنه الأجدر على الشفاء .. وهو يمنحهم المتاح ويعذرهم فى محنتهم . مازحهم . فنسوا الريفادين الذى يضنون به

عليهم ونسوا انتظارهم القلق لموعد الجراحات الخطرة الدقيقة .. يدخلون غرفة العمليات برئتين ويخرجون منها بواحدة أو لا يخرجون . بادلوه المزاح وضحكوا للحظة .. يعودون بعدها للسعال وأزمات التنفس والنزيف المباغت والبصاق المدمم وذكريات حياتهم السابقة للمرض اللعين فتدمع عيونهم حسرة أو ينسحبون تحت الأغطية .

تنبه الدكتور للمهمة التى جاء لها وللأستاذ سيف المنتظر . حشر سريراً آخر فى عنبر مزدحم محال . وضعه فى العنابر العلاجية قد يعرض الأستاذ للعدوى . ما الحل إذن ؟ ليس أمامه بديل سوى إجازة مريض آخر متعاون يسهل التأثير عليه . استعرض الأسماء واستقر على واحد .. علوان الحانوتى . اعترضت السستر لأنها لا تستغنى عنه فهو يعاونها فى بعض المهام . لم يأخذ الدكتور برأيها واستدعاه فجاء ملبياً ووقف ينقل أخبار الذى والذى . قاطعه الدكتور لأنه لا يريد الآن أخباراً وإنما سريراً ..

– خد شهر أجازة يا علوان .

– وأروح بيها فين يا دكتور ؟

– فى داهية يا سيدى .. فاكرها تكية اللى خلفوك ..

أحس الأستاذ سيف بالضيق والحرج .. لقد ترك مريضاً يقئ عند الباب ويوشك على انتزاع آخر من فراشه ، قال بشفتين مرتعشتين بينت هول ما يعانيه :

– مش لازم يا دكتور .

– اسكت أنت .

– وأضاف بعد برهة صمت :

– د . المسيرى مش أى واحد تانى .

كلهم لا وزن لهم ولا ثمن .. والمسألة مجرد مجاملات ، قال علوان

وكأنه وجد حلاً ينقذهم من الحرج :

ـ عاوز سرير ضرورى يا بيه ؟

ـ أديك فهمت .

اقترب منه هامسًا بسر عرفه للتو من صديق له فى العمل ، فأحد نزلاء عنبر الجراحة تحول بصاقه للإيجابى وارتفعت سرعة ترسيب دمه .. وهو ما يعنى ـ أن صح الخبر ـ ضرورة نقله حالاً للعنابر العلاجية ، لأن مرضى الجراحة ، ينبغى أن تكون حالتهم مستقرة .

لم يكن الأمر سرًا بالمعنى الدقيق ، مجرد سبق خبرى ، لأن نتائج التحاليل ستوزع على الأقسام فى اليوم التالى . تنهد الدكتور بارتياح وأرسل بمن يعجل بالتحاليل لتأتى المعلومات صحيحة ، فقال معلقًا وهو يقرأ التحاليل :

ـ علوان دا ولد !

واصدر تعليماته بنقل الإيجابى وإخلاء سريره للأستاذ سيف . فأصاب الهلع من خالطوه وجالسوه وأكلوا معه ، لأن العودة لجرعات العلاج ، تعنى شهورًا أخرى من الانتظار قد تزيد .

وتم رش العنبر بالمطهرات ونشط علوان متهللاً بعد إفلاته من الإجازة الإجبارية التى ـ لو تمت ـ لأصابت نشاطه التجارى بالتوقف ، رافق الأستاذ وأحضر له ملاءة نظيفة وجلبابًا وأدوات الطعام ووجبة غذاء لم تتقرر بعد ..

واختتم ترحيبه بجملة منطوقة خاصة :

ـ أى خدمة تانى يا بيه ؟

وهل ينزل البهوات فى القسم المجانى يا مغفل ؟ . شكره ممتنًا واستلقى على سريره مهمومًا كعادته ، وعلوان مصلوب أمامه لا يتزحزح ، نظر إليه مستفسرًا فقال له هامسًا :

- اطلع بحاجة عشان الجماعة ..

اعتدل متسائلاً وقد أذهله الطلب ..

- حاجة إيه ؟

- اللى فيه النصيب يعنى ..

هو الغبى الوحيد الذى أعطى بلا مقابل وكل شئ له ثمن : الكلمة والنصيحة والمشورة والحكمة ، حتى نسمات الهواء . فهل يندرج الدكتور بين هؤلاء الجماعة أم أنهم ابتداء من السستر فما دون ؟ وهل بينهم الإيجابى أم يعمل علوان لحسابه الخاص ؟ كاد يمتنع لولا رؤيته لممرضة القسم تقف باسمة على مقربة . نقده جنيهًا ليستريح من وجع الرأس فظل يستزيده حتى وصل الرقم لخمسة أضعاف . لو انه فى مكان آخر ، وفى ظروف أخرى ، لأشعل الدنيا ناراً . بات الليل مؤرقًا مما يجرى هنا وسؤال يحيره باحثًا عن إجابة : من هو علوان الحانوتى ، الذى له كل هذه السطوة، ويعرف سلفًا ما يجهله حتى رئيس القسم ؟

٣ - حكاية علوان

اسمه علوان الكاسر .. والحانوتى لقب مكتسب لتخصصه فى نقل الموتى للمشرحة وتغسيلهم . رجل داهية يندر مثله ، تشده يمط ، ترخيه ينكمش . يتمتع بذكاء فطرى وانحطاط أخلاقى . وراء ضحكته البلهاء أكبر المقالب . يختبئ خلف مظهر الصعيدى لخداع المتعاملين معه وإقناعهم بالسذاجة والعبط . سريع التكيف واسع الحيلة ، يجيد عشرات الأعمال بلا تخصص ولا يدرى أحد اين تعلمها .. يكوى الملابس ، يغير الحنفيات التالفة ، يصلح قفلات الكهرباء ، ومطيع ..

ـ شيل يا علوان .

ـ حاضر .

ـ اكنس يا علوان .

ـ حاضر .

ـ تعال يا علوان .

ـ نعمين .

قمة أعماله الخالدة ، إنقاذه المستشفى يومًا من حريق محتمل بجسارة وفدائية اشتهر بعدها وقويت قبضته . شريك الطاهى والمخزنجى وحارس البوابة وعامل المشرحة ، يتاجر معهم فى طعام المرضى وأدويتهم وجثثهم وأجزاء مختارة من الجثث . ويشاع جلبه للمخدرات على نطاق ضيق للأثرياء من النزلاء . وأصبح مستشار المرضى فى الدخول والخروج والأجازات وحلقة الوصل بينهم وبين الباشكاتب . قضى سنوات ثلاث فى العنابر العلاجية وحولوه أخيرًا للجراحة لاستئصال رئته التالفة . بدأ مشوار الشقاوة من الصعيد الجوانى ساطيًا على قطارات البضائع وقاطعًا للطريق . طاردته الشرطة هناك ففر للقاهرة مغيرًا أسلوب الجريمة للنصب والاحتيال على زبائن الموسكى ووكالة البلح وعلى راغبى السفر من بلدياته . اقتادوه مرة واحدة للقسم وضربوه علقه لن ينساها وأفلت من السجن بمعجزة ، تاب بعدها واشتغل مناديًا للسيارات ـ أول وآخر طريق للقرش الحلال ـ وتزوج وانجب أطفالاً ، ثم داهمه المرض وأقعده عن العمل ، فأرغمته الضرورة على كسب قوته من فراش المرض ، فربح وابتاع أرضًا وادخر مالاً . وخسارته عند الخروج فادحة .. له وللمستفيدين منه وهم كثرة . فساعدوه على إطالة البقاء وتعاون معهم بعدم تعاطى العلاج والتهرب بشتى الحيل من إجراء العملية . تقرب للأستاذ سيف وصادقه ـ ظاهريًا ـ ليمتص حدته

ويحيده حين أدرك خطورته وأعاد إليه جنيهاته الخمس معتذراً . سأله ملاطفًا فى لحظة صفاء :

– وأنت بقى .. عندك إيه ؟

اندهش علوان حين سمع عن المسمار واعتقد بأن الأستاذ يسخر منه أو يخفى مرضه الحقيقى ، أو أنه مدسوس عليهم لسبب يجهله ، لأنه ملم بكل المصائب التى تجتاح الرئتين من التدرن بأنواعه إلى الخراج والرشح والأورام والتهاب الشعب وتمدده .. وهذه أول مرة يسمع فيها عن المسامير.

تقمص دور الطبيب ولاحقه بالأسئلة الدقيقة :

– بتكح ؟

– أبداً ..

– نزفت قبل كده ؟

– ما حصلش ..

– عندك كرشة نفس .. ؟ بتنهج ؟

– عادى ..

– واللّه العظيم هيجربوا فيك ..

– مش فاهم ؟

– يا عم لم هدومك وشوف حالك .. بلا مسمار .. بلا شاكوش .

علوان على حق فى هذا ، فالذى يستسلم لمشارطهم والتضحية برئة أو فصوص منها ، لا يكون أمامه بديل للتخلص من آثار المرض وخوف انتقال العدوى للرئة السليمة ، وليس لدى الأستاذ هذه المبررات ..

– اسمع كلام أخوك الغلبان .. وانفد بجلدك .

لو كان موجه النصيحة شخصًا آخر غير علوان السمسار ، الملتوى ، صاحب المصلحة فى كل خطوة ، لعمل بها . لكن خاطراً مزعجًا ساوره ، بأن علوان له غرض يسعى إليه ، وربما وجد زبونًا سخيًا لسريره .

٤ - سكة الدخول

انشغلوا بوافد جديد جاءوا به محمولاً يعانى من انثقاب بللورى متأخر، أجل الموت زيارته الفاصلة لممارسة ساديته فى تعذيب المحتضرين . لعنة بلا مبرر له وللأحياء من حوله . ثقبوا بين ضلوعه وأجروا له بذلاً ووضعوا خرطومًا لسحب الماء والصديد من على رئتيه وأفسحوا له مكانًا فى غرفة الأنابيب الملحقة بعنبر الجراحة . استنجدت السستر بالفدائى علوان ليعاون المريض على السعال ويستبدل له برطمانات الصديد الذى يسيل سهواً ويسبب رائحة كريهة فهربت الممرضة متقززة ومتقيئة ، وهى رائحة لا يطيقها حتى أقارب المرضى . وعلوان صامد لا يستطيع إغضاب السستر ، وهو الذى سماها بغرفة الخنازير لنفاذية الرائحة .

– كح يا عم أحمد .

وعم أحمد ينظر بعينين ميتتين ولا يرد .

– يا راجل كح ..

تعجب الأستاذ سيف من حال الدنيا ، فهذا الرجل قد يساعده السعال على زحزحة جبل الماء من فوق الرئتين فيتماثل للشفاء ، وهو أصابته الكوارث حين سعل . نصحوه قبل امتثاله بين يدى المحقق قائلين : (أوعى تكح معاه) . فكتم أنفاسه ووقف صامتًا مؤدبًا . حتى ضايقه المحقق بالأسئلة الملفقة والزعيق والتهديد وتحداه قائلاً :

– انت هتكح معايا ؟

فخرج عن طوره وسعل ليملأ وجهه بالرذاذ والنتيجة .. مزيد من الضياع.

وعلوان يحاول مع عم أحمد ممنيًا امرأته الباكية – كذبًا – بالشفاء على

يديه ، وأنه – عندها – لن يعفيها من حلاوة السلامة ..

– يا خويا بس يقوم ..

– اتأخرتوا عليه قوى يا ست .

وماذا كان بيدها ، فلولا الحارس الذى عرفها بسكة الدخول عند الباب لمات منها فى الطريق ، تقاضى منها عشرة جنيهات ورافقهم لعيادة طبيب يعمل فى ذات المستشفى زاعمًا له بأنهم أقرباؤه ، ولولا ذلك .. ما استطاعت إدخاله مهما تدهورت صحته ، ولوعرفت هذه السكة من قبل لنجا رجلها ، منهم للّه الذين لا يستحون ولا يرحمون .

الأستاذ سيف جذبه صوت المرأة المألوف لديه .. وعرفها ورحب بها معتذراً عن إخفاقه فى مد يد المساعدة إليهما .. قاطعته مؤنبة :

– كل واحد بيقول ما بعدك روح .

وما حيلته أمام أزمة سراير لا تنحل بغير كروت التوصية والسكك إياها . دنا من علوان والرجل الذى يرقد بلا حراك مستفسراً عن حالته وفرصته فى عبور الأزمة ، هز علوان رأسه نافيًا بيأس :

– واحنا عايشين ليه ؟

علوان يتألم ويسمو شاكيًا من نظرة الناس للمصدورين ، الأقارب قاطعوه ، زوجته تتهرب من معاشرته ،يجد حرجًا فى تقبيل أطفاله ، والموت أفضل من النبذ . توقف عن شكواه الحزينة وأجاب بنفسه على السؤال الذى طرحه من قبل :

– أقولك عايشين ليه .. ؟ بتتعذب هنا .. علشان لينا الجنة هناك .

– الجنة ؟

– طبعًا يا أستاذ .. كل الفقرا والعيانين هيدخلوها من غير حساب .

– فكرك كده ؟

- يعنى نار هنا وهناك .. دا يبقى أكبر مقلب .

ندت عن الأستاذ ضحكة مبتورة ، ربما لتعبيرات علوان الطريفة والفلسفة الجديدة التى يبتكرها متجاهلاً كل الأسس والقواعد المعروفة لأجهل الناس لمن يرغب فى ثواب الآخرة ويريد فتح أبواب الجنة على مصراعيها لحملة شهادات الفقر والتقارير الطبية . فإذا كانت المغفرة متاحة للبعض فهى مستحيلة على سارق الموتى والأحياء . وكما ضحك الأستاذ بكى بغير دموع ، كان حزنه عميقًا بعمق الألم الذى يحس به ، وعلوان لا يكف عن أسئلته الموجعة :

- ليه كل العيانين بالسل من الفقرا ؟

قبل أن يجيبه عن أهم تلك الأسباب وأخطرها .. وهو الجوع المقنع ، جاء من يطلب علوان لتغسيل ميت .. تركه وترك سؤاله المعلق وأسرع ملبيًا وهو يهتف مسروراً :

- فُرجت ..

٥ - يا لها من امرأة

ساءت حالة عم أحمد وأوشك على الرحيل وامرأته الثائرة تطارد الأطباء والممرضات وحتى عاملات النظافة .. وتعترض طريقهم محتجة زاعقة :

- تروحوا فين من ربنا يا كفرة ؟

وماذا بوسعهم ؟ أجروا له بذلا ووضعوا الخرطوم فى صدره وصرفوا له العلاج انتهى دورهم .. وهى ليست مقتنعة ..

- لو ابن أكابر .. كانوا يسيبوه كده ؟

- قولى يا رب .

– وهما بيعرفوه منين ؟

– وبعدين ؟

– دنا أوديهم فى ستين داهية ؟

حاسرة الرأس ، حافية القدمين .. تجوب الممرات والعنابر والفناء ، تقتحم الإدارة وغرفة العمليات ولا يقف فى طريقها مانع ، أحزنت القلوب وانتزعت الآهات وأثارت الأوجاع ، وأخيراً جاءت بمن ظنته مديراً فى وقت خلت فيه المستشفى من المديرين والمسئولين إلاّ من النواب المقيمين . طيّب خاطرها وقضى وقتًا مع رجلها وأمر له بزجاجة جلكوز وهى – لسذاجتها – اعتقدت فيما وصفه الشفاء .. فهدأت .

امرأة بلا مُعين .. رصيدها من الدنيا ثلاثة أطفال لا أعمام ولا أخوال لهم .. وهذه الجثة . امتص مشوار المرض كل مدخراتهم القليلة .. وحتى العربة الكارو بحماره ، مصدر رزقهم الوحيد . ولم يبق لديها سوى بقايا عفش وخرق ملابس لا تصلح للبيع . قال لها علوان مصبراً ومواسياً :

– ربنا موجود يا ست

– يا خويا ؟

– يا ست محدش بيموت من الجوع .. ما أنا أهو .. عيان وولادى مبسوطين !

ابتسم الأستاذ بمرارة .. لأن علوان بالذات هو الذى يواسيها .. فهل يتصورها قادرة على الارتزاق بوسائله القذرة . وهل حقًا لا يموت الناس جوعًا كما يزعم المثل ؟ اليس التدرن الرئوى أحد أبشع نتائج سوء التغذية . وماذا عن الملايين الذين يحصدهم الجوع فى أفريقيا ، علوان بالتأكيد لم يسمع أو يقرأ عنهم . إنه على كل حال يمارس الحياة بالفلسفة الغائية السائدة ولا لوم عليه ما دام مقلداً أو متطبعًا . وقد لا يتصور مثله وجود

مُثل عليا ترتفع فوق صراخ البطون .. والسيدة بالطبع ليست من طرازه ، ولا سيف الحق ، وملايين غيرهم يكابدون فى صمت وتكية الأمير بموائدها العامرة مفتوحة للأدنياء وهم على بعد خطوات قد يلفظون أنفاسهم جوعًا تمنعهم عفتهم عن التنازل والتقاط ما يسد الرمق . ولو فعلوها .. ما آخذهم أحد .

وبلا مقدمات ، مسحت المرأة دموعها وكفت عن الشكوى وألقت سؤالاً على السستر التى جاءت مستفسرة عن المريض :

ـ ست فاطمة .. مالقيش شغلانة عندكم ؟

سؤال ضرورى ومشروع حتى لو جانبه التوقيت ، الأستاذ قال لنفسه هامسًا :

ـ عظيمة .

وعلوان قال محتجًا :

ـ إحنا فى إيه ولا إيه ؟

والسستر تسمرت مندهشة وكابحة أعصابها من الانفلات ، لكنها تفهمت ظروف المرأة وجاء موقفها وسطًا بين موقفين .. فسألتها بتعاطف ممزوج بالسخرية :

ـ وتشتغلى إيه بقى .. دكتورة ؟

ـ على قد حالي يا ست فاطمة .. أكنس .. اغسل .. حاجات من دى يعنى ..

ـ قصدك فين .. عندى ؟

ـ هنا .. فى الحكومة ..

يا لها من امرأة عظيمة كما وصفها الأستاذ . تجاوزت كابوسية اللحظة وقفزت للمستقبل بشجاعة والتزام مبتعدة عن عالم علوان الكريه . ولابد

أن فكرة ما .. طرقت ذهن السستر وهي ترى العنبر المتسخ في نهاية يوم زيارة.. وبدلاً من استدعائها لعاملة نظافة ، نظرت للمرأة التي تنتظر ردها.. وقالت لها آمرة وكأنها سلمتها الوظيفة بالفعل :

– فزى أمال وريني شطارتك ..

تحولت المرأة لشعلة متقدة من نشاط فوراً بعد انتعاش روحها ببارقة الأمل، فقامت تكنس وتمسح وترتب الأسرة وهي مصممة على اجتياز الاختبار العملي بنجاح ، وانصرفت لرؤية أطفالها والدنيا لا تسعها من السعادة .

٦ – أين السوط ؟

بعد منتصف الليل بساعة ، والأطراف متجمدة ببرودة يناير ، والسكون يلف المبنى ، والمرضى تحت الأغطية يئنون ويسعلون وقد تدهم بعضهم كوابيس ضيق التنفس فيفزعون ويعودون للنوم مستعيذين . والقطط الضالة تموء وتتعارك عند مجمع القمامة وتتخاطف رئة مستأصلة ألقى بها ممرض غبي دون تحسب لمشاعر المرضى . كل شيء هادىء .. الأطباء النواب المقيمون في استراحتهم البعيدة عن العنابر والممرضات الساهرات موزعات بعيداً عن أماكن عملهن ، من تطارح نزيلاً بالدرجة الأولى غراماً كاذباً ، من تسللت لبيتها ، من اختفت مع طبيب شاب في مكان خفي ، وقلة منهن اكتفين بالنوم في مخابىء منتقاه طلباً للدفىء وتجنباً للإزعاج .

وعنبر الجراحة ، مثل باقي العنابر .. مقفل الأبواب والنوافذ خوفاً من الإصابة بنزلات البرد ، فتكون فرصة العدوى واردة لمن يلجه ، ولذا ، يتجنب الأطباء والممرضات ،الزيارات الليلية .. إلاّ .. لأقصى الضرورة وبحذر .

فى هذا الوقت الحرج ، المتأخر انتابت عم أحمد أزمة تنفس مريعة مع حشرجة وخروشة بالصدر . وانحشرت روحه فى الحلق .. لا تخرج فتريح أو ترتد ليرتاح المرضى . نائب القسم هناك والممرضة هنا وليست هنا ، واسطوانة الأكسجين فارغة ، فما العمل ؟ هل يتركونه للموت وهم فى قلب العاصمة وداخل مستشفى مجهزة بكل الإمكانيات وبها عشرات الأطباء ؟ الغوث . «يا هو» . لا أحد . على من ينادون بعد منتصف الليل فى ليلة باردة ؟!. وعلوان الحانوتى لا يجيد شيئًا سوى التنقيط بالماء على الشفتين اليابستين ورفع السبابة للنطق الشهادتين ، طقوس لا تكفى ، قد تسهل دخوله للجنة ولن تعيد إليه الحياة .

كالتائهين فى البيداء يطرقون العنابر ويتطلعون فى الممرات .. بحثًا عن طبيب مار بالصدفة ، عن ممرضة أصابها الأرق ، عن اسطوانة أكسجين .. الاسطوانة الوحيدة الممتلئة داخل غرفة العمليات وهى مقفلة والمفتاح مع عم فلان .. وفلان هذا .. أين يعثرون عليه بعد منتصف الليل بساعة ؟

والأستاذ سيف يعود مثل أيام زمان .. فوارًا مجنونًا متحمسًا .. يفتح صدره للرصاص ويقود المظاهرات ويتناوب المخبرون ضربه ممزقين جسده بالسياط والخيرزان .. فلا يعترف . سنوات القمع والطرد لم تغتل عزيمته بعد، يثور لهذا الإهمال الجسيم .. فيستدل على مكان ممرضة القسم ويصعد إليها ، عفاريته الهائجة أنابت عنه طرق الباب ..

– مين دا ؟ فى إيه ؟

يا بختها .. تأتى من بيتها لتقضى نوبة عملها الليلى نائمة وتقبض راتبها فى نهاية الشهر بالتمام على واجب لم تؤده . أفاقت على الطرق المتواصل متورمة العينين ، مشوشة الذهن ، تتثائب ، وتخفى نهديها العاريين ، وتنظر بضيق واستنكار للأستاذ سيف .. المستنجد :

– الحقينا .. عم أحمد بيموت .

– هو أنا كنت ربنا ؟

ملعونة يا ملاك الرحمة .. أين الرحمة ؟ بل أين السوط لا توجد وسيلة للتعامل بها معها ومعهم سوى السوط .. وأين يوجعك . لا وقت للنقاش ، يتهور فيقبض على معصمها ويشدها لتنزل . لو قاومت أو ترددت لانكسر ذراعتها من قوة الضغط . رافقته خائفة وهي تلعن المهنة وعم أحمد وعزرائيل .. وتلعنه ، ولابد أنها أضمرت له شراً ، حقنة هواء أو شكوى بمغازلتها . وهو لا يبالي ، أهم من نفسه الآن .. إغاثة الرجل .

ألقت نظرة عاجلة عليه دون أن تلمسه أو تقيس حرارته وقالت متشائمة :

– دا خلصان ..

وأضافت بغيظ :

– وأنا هعمله إيه دا ؟

يتساءل الأستاذ حانقًا :

– مفروض في دكتور بيمر ؟

ترد عليه بانهزامية وتقفل باب الأمل :

– برضه مش هيعمل حاجة ..

لا يقتنع . يتخبط فى الظلام واليأس إلى حيث يقيم نائب القسم رغم الحظر المفروض على المرضى بعدم الاقتراب من استراحتهم . يعثر على طبيب امتياز وحيد .. فأين الباقون ؟ المؤكد أنهم ليسوا داخل المبنى فلم يشاهد أحدهم وسط العنابر . خرج له الطبيب بمنامته يحاصره البرد والنوم ..

– وتطلع مين سعادتك .. ؟

هل يسخر منه ؟ هو الذى ضاع سوطه .. بل جرد منه قبل الأوان

وحفظوه فى متحف الآثار ومخازن شرطة الهجانة .. ولابد من استعادته .. وعندها ، يا ويلكم منه ..

– إيه الحكاية يا أخ ؟

الحكاية يا سيدى بإيجاز ، تستطيع معرفتها على الطبيعة ، لو تفضلت بزيارة عنبر الجراحة ، وربما ثمة حكايات أخرى مماثلة فى العنابر الأخرى .. فهل تتكرم ؟

– انا جاى وراك ..

لا وراءه ولا قدامه ، غلبه النوم واشتد عليه البرد فاستسلم للكسل .

وعندما رجع الأستاذ سيف للعنبر ، وجد علوان بجوار الممرضة النائمة على مكتب السستر يحاول إيقاظها برفق لكى يخبرها بموت عم أحمد . قامت بصعوبة وحملت أوراقه للطبيب لكى يؤشر عليه باللازم وعادت إليهم بعد قليل وخيرتهم بين نقله للمشرحة القريبة أو تركه فوق سريره للشروق . قالوا خير البر عاجله وحملوه لمثواه المؤقت وعادوا لنوم متقطع وأحلام متعددة ، والأستاذ سيف رأى حلمًا فريدًا رائعًا ، طائرة مروحية تهبط فى الفناء تقابلها سيارة إسعاف حديثة مجهزة . وقرأ خبرًا مثيرًا بالخط البارز ، على الصفحة الأولى بجريدة مشهورة :

– رئيس الوزراء يأمر بعلاج بائع متجول على نفقة الدولة ونقله فورًا لغرفة الإنعاش بمستشفى المعادى .

أكان يحلم حقًا ؟ أكدت السستر ذلك حين أرغمتهم على الصحيان بصوتها المزعج :

– قوموا جاتكم الغم .. وديتونا فى داهية .

٧ - بركاتك يا شيخ أحمد !

ليست داهية يا سستر فاطمة ولكنها معجزة وقعت عند أطراف العباسية، أمر قل – بل استحال – وقوعه منذ عصر النبوة .خرج الخبر من المشرحة لينتشر بسرعة هبوب الريح من العنابر للشارع لمعسكرات الجيش حتى وصل لميدان العباسية بزحامه والتقاء طرقه ، وبعد ساعة واحدة سيعلم به سكان القاهرة الكبرى . وقطعًا طيرته وكالات الأنباء لأركان الدنيا لطرافته.. لأن الموتى لا يبعثون كل يوم ، فالرجل الذى نقلوه فى الليل ميتًا وجده عامل المشرحة يجلس عاريًا فى الصباح يسعل ويتنحنح .. وهو الآن ينام على سريره محاطًا برعاية فائقة وبجواره اسطوانة أكسجين وزجاجة نقل دم وجلوكوز وأغلى أنواع العلاج ، الريفادين .

وعلوان سبب البلاء ، يحلف ويؤكد ومصمم .. أنه كان ميتًا حين نقلوه مستشهداً بمن حوله .. وهل هم أطباء ؟ . والممرضة صدقته دون القيام بأبسط طرق التأكد ، جس النبض . والطبيب صدقها ووقع على الأوراق دون حق .. لأن نائب القسم المقيم وكله وذهب لبيته أو لعيادة خاصة .

وعلوان القاتل .. يحول الرجل الآن لنبى ، زاعمًا – كذبًا أو توهمًا – عن طير أخضر رفرف بجناحيه بجوار النافذة لحظة طلوع الروح ، عن نور أضاء زوايا المشرحة المظلمة ، عن ملائكة سمعها تصلى عليه . هو وحده الذى شاهد وسمع .. أيكون مكشوفًا عنه الحجاب ؟ والدراويش من العامة والخاصة ، صدقوه ، وجعلوا من غرفة الأنابيب بروائحها النفاذة .. مزارًا ، وعم أحمد .. لآخر الأولياء الصالحين ، ولم يبق إلاّ أن يشربوا الصديد الناضح منه .. تبركًا والمرضى يتزاحمون عليه كأنهم يأملون فى الشفاء

بمجرد التحدث إليه .. بركاتك يا شيخ أحمد !

بصعوبة أعادت السستر النظام للعنبر وأشرفت على ترتيب الأسرة توقعًا لزيارة المدير العام . والدكتور سعيد قام بالمرور الثالث خلال نصف ساعة ، موجهًا محذرًا منبهًا :

– لا شكاوى فارغة ولا كلام زائد ..

والجراحة أسرة واحدة وطلباتكم مجابة بعد الزيارة ، ولا أحد يتفوه بكلمة دون إشارة مني وعلوان سينوب عنكم فى الرد على الأسئلة المتوقعة:

– عارف هتقول إيه يا علوان ؟

– فاهم يا بيه .

– غلطة واحدة وارميك فى الشارع .

– ربنا يستر يا بيه .

وقال موجهًا تحذيرًا للأستاذ سيف الذى شكته الممرضة :

– ممكن تلم لسانك ؟

لم يرد فاضافت بضيق :

– انت طلعتلى منين ؟

تراجع فى آخر لحظة عن الرد .. من الواضح أن الدكتور سعيد معبأ ضده ولا جدوى لأى نقاش معه أو توضيح ما حدث له فهو هنا ليس مهيأ لمحاسبة المخطئ فالرجل حى يرزق وخرج من المحنة سليمًا بلا عاهة مستديمة .

دخلت السستر تجرى وتصلح هندامها .. فاعتدلوا انتظارًا للزيارة الهامة.

٨ - ثورة سيف الحق

إحدى الزيارات النادرة التي يقوم بها المدير العام للعنابر ، خلفه العشرات وأمامه الدكتور سعيد مفسحًا الطريق .. شارحًا وموضحًا . اتجه به لغرفة الأنابيب فقابلتهم امرأة الرجل مزغردة .. فعلام هذه الزغرودة السعيدة يا ترى ؟ هل ظنت الزائر وزيراً جاء يتبرك من زوجها الوليّ ؟ أم تعرف هويته وتحيى من يملك قرار توظيفها .. ؟ لا احد يملك تفسيراً منطقيًا لتصرفها الغريب . داعبوه وهنأوها وعادوا للعنبر . أشار الدكتور سعيد لعلوان فتقدم بالعًا ريقه ليتهيأ للموقف . قدمه الدكتور سعيد للمدير ممهداً :

- دا بتاع الحريقة يا دكتور .

تجاوز المدير هذه الإطراءة وسأله مستنكرًا :

- أنت اللىّ عملت كده ؟

علوان بذكائه الفطرى الحاد ، أدرك أن حكاية الملائكة والطير والنور لن تخيل على رجل كالمدير ، فكر بسرعة وعاد لثوب الصعيدى الساذج وقال بطريقته التمثيلية متفكهًا :

- ضحك علينا اللىّ واكل ناسه يا سعادة الباشا .

مهرج رخيص أفلح فعلاً فى انتزاع البسمات وحول مأساة الرجل لنكته. تساءل المدير والبسمة ما تزال معلقة على شفتيه .

- ضحك عليكم إزاى ؟

- عمل ميت علشان يشوف مرته هتحزن عليه والأ هتنساه .

استرد المدير وقاره وقطب جبينه عابسًا مدركًا بأنه يحاور رجلاً ليس بالبساطة التى يدعيها وأنه يخفى أمرًا وراء سذاجته المصطنعة فقرر التوصل للحقيقة فضيق عليه الخناق بالأسئلة المتلاحقة :

ـ الدكتور بيمر بالليل ؟

ـ زى غفير الدرك يا باشا .

ـ والممرضة ؟

ـ وهى بتبارح العنبر يا سعادة الباشا .

ـ إمال إيه الحكاية ؟

ـ أصلى أنا .. هو .. لقيت ..

الصعيدى وقع فى المصيدة فسكت ونظر مذعوراً للدكتور سعيد طالبًا النجدة ، والمدير تلفت حوله باحثًا عن إجابة من المحيطين به ، وعلوان يقوم من عثرته محاولاً إصلاح ما أفسد :

ـ يا سعادة الباشا ..

قاطعة المدير ونهره بشدة :

ـ اسكت يا غبى .

وبعد لحظة توقف :

ـ الباشا هناك فى عزبتكم ..

الدكتور سعيد تدخل بشقله لترميم الثقوب الفاضحة التى بانت من خلال الحوار ، واستطاع إنقاذ الممكن ، ولابد أن المدير قد اقتنع بوجهة نظره، لأنه ابتسم بعد عبوس وتضاحكوا وتحركوا فى وئام ناحية الباب ، فى تلك اللحظة بالذات انتابت الأستاذ سيف الحالة المرضية المدمرة التى يعانى منها ، حالة تبدأ دائمًا بوخزة ألم بجانبه الأيسر تحت القلب مباشرة ، فيرتعش وينتفض وتسرى نيران جهنم فى عروقه ، فيفقد السيطرة على نفسه ويفلت منه الزمام ، عندها .. قد يقتل دفاعًا عن عابر سبيل ، قد يشهد بالحق ضد أبيه ، قد يهتف بسقوط الملك داخل قصره وعلى مائدة طعامه . نسى تحذيرات الدكتور سعيد وطار فى الهواء وكان أمام الموكب أو

فوقه لا يدرى..

– مجنون .. مجنون .

– الحقوا سيادة المدير .

– ماله دا ؟

– بيقول إيه ؟

– أمسكوه .

– استنوا .

المدير بإشارة آمرة أوقفهم .. دنا منه ، ربت على ظهره وأبعد كل المحيطين به ، حدق فيه مليًا وعرفه رغم المسافة الزمنية البعيدة ارتد للماضى.. مدرسة الدواوين ، التختة المجاورة ، المظاهرات ، سنجة الترام المرفوعة ، الطوب ، ميدان عابدين ، الملك ، والعلقة التى لحقته من أبيه وتحذيره القاطع له :

– لو شفتك مع الواد الصايع اللى اسمه سيف دا .. أنا هنقلك من الدواوين .

ولأنه كان ينسى دائمًا تحذيراته ، وينجذب إلى سيف بقوة لا تقهر.. يخرج معه ويحمل الطوب والمنشورات ، فقد اضطر أبوه لنقله لمدرسة القربية . فيا للزمن والأيام ، الأمور تغيرت .. وسيف كما هو .. بحماسه وجنونه . كاد يعرفه بنفسه لولا الحرج ، اكتفى باحتوائه تحت أبطه وساله بعطف :

– مالك

تلعثم سيف .. ما يزال داخل دائرة الانفعال ..

– على مهلك .. فى إيه ؟

نعم يا سيدى ، ليلة البارحة ، الرجل ، الممرضة ، نائب القسم اسطوانة

الأكسجين الفارغة ، وإنهم ..

المدير أسكته عن السرد مكتفيًا بما قال ، ونفخ بضيق وضرب كفًا بآخر ، فاعتذر له الدكتور سعيد .. لأنه تلقى معلومات مضللة مثل سيادته ، لكن المدير ثار عليه وعلى المرافقين وأمر بتحويل كل المقصرين للتحقيق حالاً .

واجه الأستاذ سيف .. جهامة الوجوه . الغضب . الوعيد وعلوان يلطم خديه بقوة مبالغة ويبكى ، اقترب منه مهدئًا ..فدفعه لاعنًا :

- غور من وشي يا مؤذى .. خربت بيتى الله يخرب بيت أبوك .

٩ - العقاب

.. لا سوط في يده ولا سيف . ولا معين . عار تمامًا وسط جيوش الباطل يتوقع طعنة يجهل مصدرها . امتنع عن تناول طعامهم مكتفيًا بالماء والخبز، غافل الممرضة والقى بالمضاد الحيوى في دورة المياه ، راقب علوان والنوافذ ، حلل الكلمة والهمسة . فكر بإمعان : أيبقى أم يفر ؟ يصمد أم يستسلم ؟ وهو عنيد فقرر البقاء وقبل التحدى .

صباح اليوم التالى جاءهم الجراح الكبير الزائر الذى يقوم بعمليات الصدر ومعه الدكتور سعيد .. تلميذه النابغة ومساعده ، جاء لاختيار الحالات الجاهزة لجراحات الغد ، وعمل تصفية شاملة بعد أحداث الأمس وتحديد موقف كل مريض ، مروراً على النزلاء بالترتيب . توقفوا مع علوان طويلاً .. كشفوا عليه وسالوه وقرأوا تحليلاته وفحصوا أشعته . لم يكن الأستاذ سيف قد أجريت له أشعة الصبغة والمنظار بعد ، .. تجاوزوه .. وتجاهلوه ، وتركوا القرارات للسستر للتنفيذ . نادت على الأسماء وبلغت : مناظير واستئصال ومضاعفة علاج .. صيام .. حقنة شرجية .. احتياطى..

والأستاذ سيف ينتظر .. يتوقع أمرًا لا يدريه ..

ـ علوان الكاسر .

قالتها بصوت حزين متأثر

ـ نعمين يا ست الستات .

ـ خروج .

هي أخفت عينيها لتداري دموعها ، وهو انهار تمامًا من هول القرار الذي لم يتوقعه أبداً ، وكان الأستاذ آخر من نادتهم ..

ـ وأنت ..

قالتها باحتقار ورفعت صوتها ليسمع الجميع مصير من يتطاول عليهم ونطقت بالقرار متشفية :

ـ خروج ..

وهو يجمع حاجياته ويستبدل ملابسه ، جاء من يطلبه بالاسم لغرفة العمليات كتعليمات السيد المدير .. قرار خروج وغرفة عمليات .. كيف يتفقان ؟ أصيب تفكيره بشلل وقتي فترك متعلقاته وفر من النافذة للحديقة متخبطًا لا يدري أين المنفذ . ركضوا خلفه كأنه لص ، تكاثروا عليه وحملوه عنوة لغرفة العمليات وطرحوه فوق المنضدة ،حقنوه بالمخدر فغاب عن الوعي .

١٠ - لم يكن مسمارًا ؟

.. القرار الصعب اتخذه المدير منفرداً وبسرية بعد تفكير مؤرق استغرق منه ساعات الليل ، استعان في بحثه عن الحقيقة بالصحف القديمة والحديثة وأرشيف صوره ومذكراته ، اتصل بالمسيري وبأصدقائه القدامى ممن زاملهم

فى الدواوين . كان بينهم جراح صدر مشهور وأستاذ تاريخ وعالم آثار ودعاهم لمهمة شاقة مكونًا منهم لجنة رفيعة المستوى .

بكر لعمله وباغت المهملين والمنحرفين ، وطلب إعداد غرفة العمليات لجراحة هامة دون ذكر اسم من ستجرى له العملية ، وزع أمرًا إداريًا بتواجد كل أطباءالمستشفى أثناء الجراحة التاريخية ليكتسبوا خبرة جديدة . اجتمع أعضاء اللجنة وناقشهم وانتهى معهم إلى تصور واحد للموقف :

– مهم جداً الإبقاء على حياة الأستاذ سيف ، فلا معنى لموته أثناء محاولتهم تخليصه مما يؤلمه ،ولا قيمة لبقائه حيًا بهذا الجسم الغريب . والمطلوب أن يواصل الحياة سويًا معافى ، معادلة ممكنة التنفيذ لو تضافرت الجهود وحسنت النيات .

بدأ الجراح عمله الشاق بالمنظار ، رفع راسه مندهشًا مبهوتًا وانحنى ينظر من جديد وكأنه لا يصدق ما يراه ، دعاهم لإلقاء نظرة متشككًا فى سلامة عينيه ، فما رآه أمر يفوق التصور فالذى بداخل الأستاذ سيف ليس جسمًا صغيرًا فى حجم المسمار أو الدبوس ، لكنه أكبر وأصلب ويستحيل ابتلاعه من الفم أو أى فتحة أخرى فى جسم الإنسان ، ولا توجد بقايا أثار لجروح سابقة تدل على رشقه من الخارج .. فمن اين دخل الرئة ؟ هناك

احتمال واحد لا بديل له ، إنه ولد به . فكيف عاش كل هذه السنوات؟

تشاور المدير مع أعضاء اللجنة وقرروا فتح الصدر .

بهدوء ، بدقة ، بحرفة ، تسللت الأنامل المدربة بالمشارط بين الأوردة ، والشرايين .

ست ساعات والأنفاس محبوسة وتمنيات من القلب بالنجاح . تعلقت الأنظار بوجه الجراح ، بشفتيه ، بعينيه ، بيديه وهما تخرجان الشىء الذى

حيّرهم ، كبروا وتبادلوا التهنئة بعد نجاح أدق عملية لاستخراج أغرب جسم من رئة كائن حي . مسحوا الدم والصدأ من فوق الجسم المعدنى ووقفوا حائرين :

ـ ما هذا ؟ إنه نصل حاد منقوش عليه توقيعات بلغات مختلفة ليست واضحة من ضآلة الحروف .

استعان عالم الآثار بمكبر وفسر لهم المكتوب :

ـ إنها لغات قديمة وحديثة، أغريقية ورومانية وفارسية وعربية وفرنسية وانجليزية وتركية وعبرية ، وتلك توقيعات قادة مروا من هنا .

وقال لهم أستاذ التاريخ مكملاً :

ـ أن هذا النصل ، مغروس داخل هذا الرجل ، منذ ما يزيد عن ألفى عام.

الفهرس

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية .. قصة

ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
لا أحد يحبك	أماني فهمي
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسني لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيري عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب اطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
الطريق والعاصفة	رأفت سليم
في لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أنا كنده	كيروجا ترجمة : رزق أحمد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد في ظل	عبد النبي فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلي	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
صعيدي صُح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامي	عزت الحريري
في انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيري
إينارو	د. علي فهمي خشيم
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس ابوليوس ترجمة د.علي فهمي خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحي سلامة
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوي
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
حب وظلال	كوثر عبد الدايم
ترانزيت	ليلى الشربيني
مشوار	ليلى الشربيني
الرجل	ليلى الشربيني
رجال عرفتهم	ليلى الشربيني
الحلم	ليلى الشربيني
النغم	ليلى الشربيني
الخرابة 2000	محمد الشرقاوي
كوميديا الإنسجام	محمد بركة
أشياء لا تموت	محمد صفوت
الحاج	محمد عبد السلام العمري
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمري
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتي الساخنة	محمد محي الدين
الحبيب الجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القديري
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخوري

شعر ..

أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
قصائد حب من العراق	البياتي وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطى
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطى
تماماً إلى جوار جثة يونسكو	رشيد الغمرى
كأنها نهاية الأرض	رفعت سلام
الألوان ترتعد بشراهة	شريف الشافعي
صلاة المودع	صبرى السيد
دنيــــــا تناديـــا	طارق الزياد
تلف	ظبية خميس
البحر. النجوم. العشب في كف واحدة	ظبية خميس
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافى
حواديت لفندى	عصام خميس
سيرة الماء	د . علاء عبد الهادى
راتب الألفة	علوان مهدى الجيلانى
إضاءة فى خيمة الليل	على فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوى
إذهب قبل أن أبكى	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدى رياض
مشاعر همجية	محسن عامر
غربة الصبح	محمد الفارس
وَنَس	محمد الحسينى
ليالى العنقاء	محمد محسن
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لى	نادر ناشد

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة	د.أحمدصدقى الدجانى
اللعبة الأبدية (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
ملكة القرود	محمود عبدالحافظ

دراسات ..

هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية	أحمد الأحمدين
قراءة المعانى فى بحرالتحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
اللغة والشكل	أمجد ريان
المثقفون العرب والتراث	جورج طرابيشى
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادى
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعونية	سليمان الحكيم
البعد الغائب : نظرات فى القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رواد الأدب العربي فى السعودية	شعيب عبد الفتاح
الكتابة المشروع	شوقى عبد الحميد
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثاً عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أعلام من الأدب العالمى	على عبد الفتاح
هيمنجواى حياته وأعماله الأدبية	د . غبريال وهبة
زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
أدب الطفل العربى بين الواقع والمستقبل	ممدوح القديرى
الرواية العربية : رسوم وقراءات	نبيل سليمان

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - تراث - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

المؤلف

إدريس على محمد

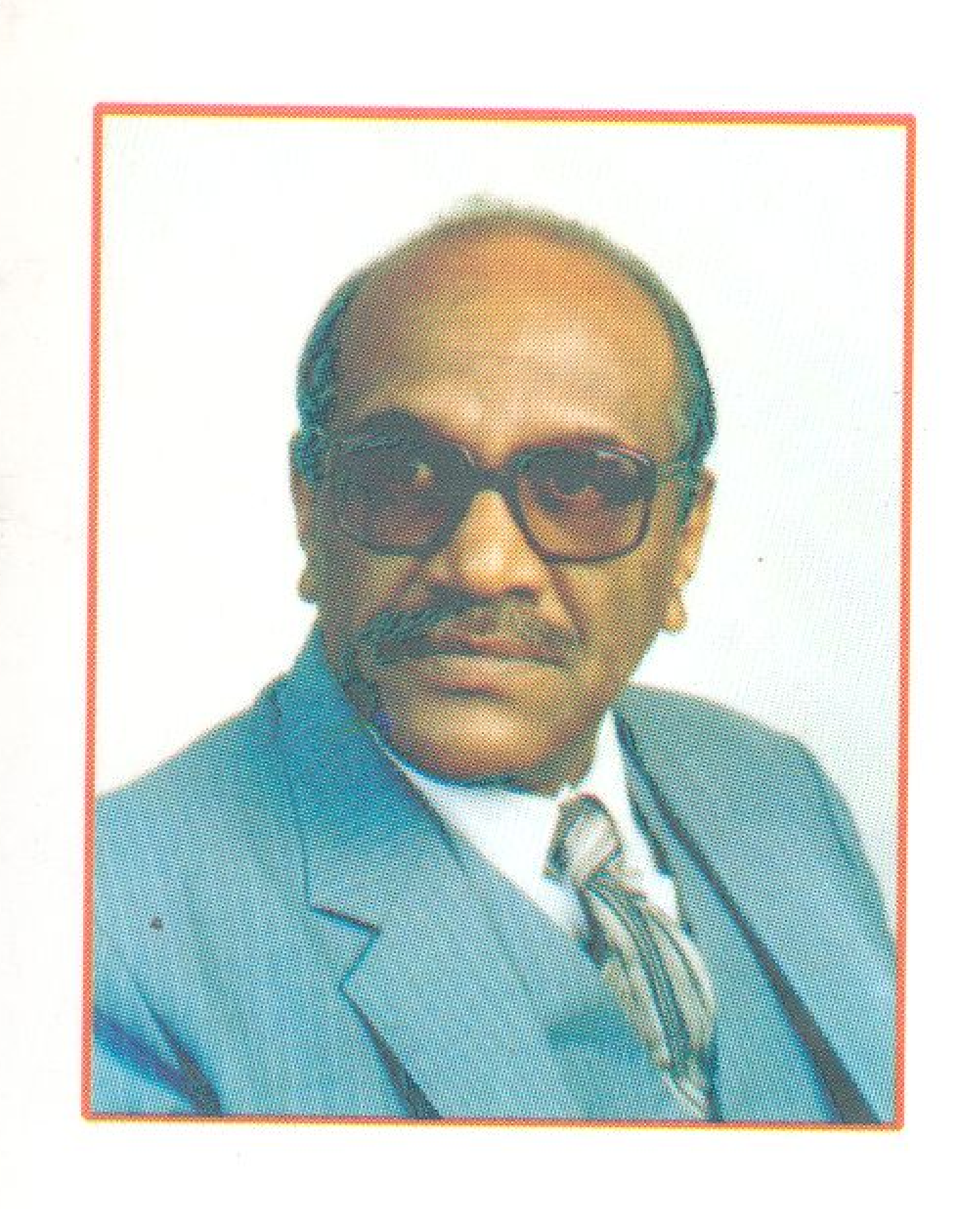
* عضو اتحادالكتاب
* عضو نادى القصة
* حاصل على الجائزة الأولى من جامعة اركنساس بالولايات المتحدة عام ١٩٩٧ عن ترجمة رواية دنقلة للانجليزية.
* حصل على جائزة أفضل كتاب صدر عام ١٩٩٨ من معرض القاهرة للكتاب عام ١٩٩٩ فى مجال الرواية (رواية انفجار جمجمة)
* درع الثقافة الجماهيرية من مؤتمر القاهرة الأدبى الأول عام ١٩٩٩ .

مؤلفاته :

- المبعدون قصص
- واحد ضدالجميع قصص
- دنقلة رواية
- وقائع غرق السفينة قصص

تحت الطبع

- النوبى رواية



وأفكر فى الذين ضلوا وهلكوا أو صرعهم حراس الحدود من الدولتين .. جثث مجهولة طوتها رمال الصحراء .. لا سبلت جفون أصحابها ولا بكاهم مخلوق ، إن يقفوا أو يسيروا سنصل حتما لمكان آخر فوق سطح كرتنا الأرضية المنكودة المليئة بالمخادعين واللصوص والكلاب ، وفى وطننا أيضا مقاولو أنفار من موردى البشر الذين يأكلون عرق الكادحين ويثرون . هنا أوهناك . فنحن تحت رحمة من يملك .

